منتصر أمين
رواية
شتاء أخير
تويا

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

ـــ رواية ـــ

شِتَاءٌ أَخِير

مُنْتَصِر أَمِينْ

ـــ رواية ـــ

شِتَاءٌ أَخِير

مُنْتَصِر أَمِينْ

هل شعرت من قبل أن حياتك تحولت إلى
شئ لم تكن تتخيله؟!..
لا تفزع.. فالخوف لن يصيبك..
فقط بعض القلق، ومعه ستتجسد كل خطاياك..
لا تتراجع وأكمل دربك، ستكتشف الحقيقة..
لا أحد حينها سيتصور ما فعلته..
لا أحد على الإطلاق..

مُنْتَصِر أَمِينْ

ما الحياةُ إلّا حلمٌ باهتٌ لروحٍ ميّتةٍ هاجعة؛

فالأشياء ليست كما تبدو!..

(هنري وادسورث لونجفيلو)

(١)

طنين فظيع دوى في أذنيها، سيطر على كل حواسها حتى باتت لا تسمع سواه.. أغمضت عينيها في ألم وهي تحاول مقاومة ذلك الدوار المخيف الذي عصف برأسها، أخل بتوازنها.. استندت بكفها على طرف المكتب وهي تقاوم السقوط على الأرض.. فتحت عينيها بصعوبة، كانت الرؤية أمامها مضطربة.. إهتزت كل الأشياء أمام ناظريها.. أحست أن الأرضية الخشبية تتشقق من تحت أقدامها، والسقف ينهار أعلى رأسها.. جزت على أسنانها حين بدأت تصطك، وضغطت عليها بقوة حين ضرب الألم فكها.. ومعه بدأ ظلام كثيف يغشى رؤيتها..

"إنت كويسة؟!، قلقتيني.."

إنتبهت حين سمعت تلك العبارة، لكنها لم تجب من شدة الألم، إكتفت بإيماءة خفيفة من رأسها..

"لسه مش عارفه تنامي؟!"..

بلعت ريقها بصعوبة لتقاوم جفاف حلقها ثم أجابت بحدة، وهي تمسك برأسها من شدة الألم:

- إنتِ عارفة اني مش بنام.

- لسه بتحبيه؟!.

إزدادت حدة الطنين ومعه إزداد الألم في رأسها، فقالت بصوت خرج مرتجفًا من بين أسنانها التي كانت تصطك بعنف:

- السؤال هو، إنتِ بتحبيه؟!.

لم يأتها رد، فقط ضحكة هازئة.. قالت وهي تكافح الألم الفظيع الذي تملك كل كيانها، وتلك الرعشة القوية التي إجتاحت جسدها:

- بلاش تعملي كده، أرجوكي.

كان الصمت هو الجواب مجددًا.. بدأ الظلام يسيطر على عالمها فانتفض جسدها في عنف، أردفت قبل أن تسقط متهاوية:

- هتندمي.

***

جلس المقدم "معتز الشامي" في مكتبه بقسم شرطة قصر النيل شاردًا.. كانت الأيام القليلة الماضية قد حملت له من المفاجأت ما عجز عقله عن تصديقه.. تغيرت معها قناعات كثيرة كان قد رتب حياته على الإيمان بها.. أطفأ سيجارته بغضب في مطفأة معدنية إمتلأت عن أخرها بأعقاب السجائر.. أسند مرفقيه على المكتب ثم دفن وجهه بين راحتيه، أغمض عينيه في يأس وهو لا يدري ما القرار الذي يجب عليه إتخاذه..

سمع صوت طرقتين مهذبتين على الباب، دخل في عقبهما أحد العساكر يرتدي زيًا مدنيًا ووقف أمامه في إحترام شديد.. وضع جرائد الغد أمامه بعد أن أدى له التحية ثم انصرف في خطوات سريعة.. تأمل "معتز" الجرائد لوهلة ثم أمسك بها يقرأ عناوينها الرئيسية دون أدنى إكتراث.. كانت الأخبار مكررة كالعادة، لا جديد فيها..

إتسعت عيناه حين وقعتا على خبر مكتوب في أسفل الصفحة الأولى من جريدة "الأهرام" كعنوان رئيسي بخط واضح:

"نجحت مباحث القاهرة بقيادة المقدم/ معتز الشامي في كشف غموض قضية مقتل الفنانة/ صفاء عبدالحميد، بعد أن صدرت التعليمات من قيادات مديرية أمن القاهرة

تـم تشـكيل فـرق بحـث جنـائي حققـت في كل ملابسـات الجريمـة. توصلـت المصـادر السريـة إلى معلومـات مفادهـا تـورط طبيـب نفـسي، كانـت الفنانـة تـتردد عـلى عيادتـه، في قتلهـا. بعـد الحصـول عـلى إذن النيابـة المختصـة.....″

لم يكمـل ″معتـز″ قـراءة الخـبر، رن هاتفـه الداخـلي فـرد صائحًـا وقـد تملكـه الغيـظ:

- أنا مش قلت مش عاوز إزعاج.

صمـت لوهلـة يسـتمع لصـوت محدثـه ثـم ألقـى بالجريـدة عـلى المكتـب، وتسـارعت أنفاسـه بشـكل لاهـث.. أغمـض عينـاه في ألم وهـو يقـول في حـزن:

″مش ممكن!!″.

أمسـك مفاتيـح سـيارته سريعًـا، وغـادر مكتبـه متجهًـا إلى طريـق مـصر الأسـكندرية الصحـراوي.. طـوال الطريـق لم يتوقـف عقلـه عـن العمـل لحظـة واحـدة.. لم يشـعر بتلـك السرعـة المخيفـة التـي أشـار إليهـا مـؤشر عـداد السرعـة، لم يبـال بالرؤيـة التـي كانـت شـبه منعدمـة نتيجـة الأمطـار الغزيـرة ولا بالطريـق الـذي أصبـح زلقًـا.. كان يفكـر كيـف يمكـن أن تتسـارع الأحـداث وتتطـور حتـى تصـل إلى تلـك الدرجـة مـن العبـث..

أوقـف سـيارته فجـأة، بعـد أن قطـع المسـافة في زمـن قيـاسي، أمـام السـور الضخـم لتلـك المصحـة الشـهيرة.. يزيـن مدخلهـا لافتـة دعائيـة ضخمـة، مضـاءة بنـور مبهـر، كتـب عليهـا بخـط أنيـق (مستشـفى د. هشـام وهـدان للصحـة النفسـية).. بالرغـم مـن صـوت الرعـد الـذي كان هزيمـه يـدوي بعنـف في تلـك الليلـة الشـاتية الغزيـرة المطـر إلا أن صـوت توقـف السـيارة كان مسـموعًا.. كان الصـوت مرتفعًـا حـادًا بـدد الهـدوء المعـروف عـن تلـك المنطقـة الصحراويـة النائيـة بعـد أن ضغطـت قدمـه بعنـف عـلى دواسـة الفرامـل..

هبـط مـن السـيارة بسرعـة، وجـال ببـصره يفتـش في المـكان مـن حولـه.. بصعوبـة أبـصر سـيارة ″أكـرم رشـدي″ تقـف في الظـلام، بالقـرب مـن نهايـة الشـارع الجانبـي قبـل السـور المرتفـع للمصحـة.. وعـلى مسـافة قريبـة منهـا تقـف سـيارة بـدا لونهـا الأزرق باهتًـا، خمـن أنهـا تخـص ″ليـلى″.. إختلـس النظـر داخـل السـور، كان المـكان غارقًـا في ظـلام يماثل تلـك العتمـة التـي سـيطرت عـلى الأجـواء.. فقـط القليـل مـن أضـواء باهتـة تناثـرت في أنحـاء مختلفـة مـن المصحـة، ضـوء بعيـد بـدا واضحًـا في مبنـى متطـرف منعـزل، عنـد الطـرف الجنـوبي للمـكان..

توترت عضلات وجهه حين تحسس سلاحه الميري في جانب بنطاله الأسود، تحرك نحو مدخل السور في حذر إكتسبه من سنوات عمله بالمباحث.. وجد الباب الحديدي الضخم مغلقًا بإحكام، الحراس محتمون بغرفتهم توقيًا للبلل.. دار دورة كاملة حول السور المرتفع حتى وجد نقطة تصلح لتسلقها، قفز إلى الجهة الأخرى في رشاقة لا تتناسب مع جسده الضخم.. وارتسمت على وجهه علامات الإرهاق الشديد بعد أن أمضى يومه كله في العمل..

تحرك بخطوات حذرة نحو الطرف الجنوبي، صوب المبنى المنعزل.. تفحصه جيدًا، كان المبنى أشبه باستراحة خاصة من طابقين.. أبصر ضوءًا في واحدة من غرف الطابق العلوي.. دنا من باب المبنى الزجاجي، المزين بنقوش ورسومات أنيقة.. وجده مفتوحًا فدخل على الفور بعد أن سحب سلاحه، أمسك به في يده.. كان السكون مسيطرًا على الأجواء بصورة مقلقة، دارت في رأسه الهواجس والظنون حين تذكر ما آلت إليه الأمور منذ أن تولى أمر هذه القضية..

إنتبه على صرخة أنثوية هائلة، شق صوتها حاجز السكون تأتي من الطابق العلوي.. تحرك في خفة وسرعة

نحوها، أخبره حدسه أنه صوت "ليلى".. صعد درجات السلم الرخامي وقد بلغ منه التوتر أقصى درجاته.. بالرغم من البرودة الشديدة التي كانت تسود الجو إلا انه شعر بسخونة غريبة تسري في جسده، وتجمعت فوق جبينه حبات من العرق.. تحرك على أطراف أصابعه في ممر طويل، على جانبيه غرف موصدة الأبواب.. إلتزم الصمت تمامًا، يحاول إستراق السمع لتحديد مكان الصرخة..

أتاه صوت بدا خافتًا في البداية من غرفة مغلقة في نهاية الممر، اقترب منها بخطوات حذرة.. كلما إقترب أكثر زاد الصوت وضوحًا.. لم يتبين منه سوى كلمات متفرقة غاضبة..

- هقتلك، هقتلك.

تحرك سريعًا نحو الباب يحاول فتحه، لكنه كان موصدًا من الداخل بإحكام.. ألصق أذنه بالباب فسمع بصعوبة..

- بلاش، أرجوك بلاش.
- بلاش إيه بالضبط؟.
- بلاش موت.
- مش ممكن أسمح....

انتفـض جسـده حـين شـق سـمعه دوي طلـق نـاري في الغرفـة، اندفـع معـه "معتـز" عـلى الفـور يطـرق عـلى البـاب بقـوة صارخًـا:

- إفتحوا الباب.

لم يجـد جوابًـا فأخـذ يـركل البـاب بقدمـه بعنـف شـديد، ثـم اندفـع بكتفـه نحـوه بـكل قوتـه.. فجـأة، تـردد في فضـاء المـكان دوي طلقـة ثانيـة..

معها إنهار الباب تحت ثقل جسده..

دخـل "معتـز" الغرفـة فتسـمر في مكانـه، واقشـعر جسـده.. اعـتراه الذهـول، سـالت الدمـوع مـن عينيـه..

***

... اليوم الأول ...

إن أحببت شخصًا امنحه كل اهتمامك..
ففي يوم قريب قد لا تجده إلى جوارك..

(٢)

داعبـت أصـوات خافتـة أذنيـه فأقلقـت نومـه، فـارق النعـاس عينيـه المنهكتـين ففتحهـما في بـطء شـديد مشـوب بالحـذر.. إعتـدل "أكـرم رشـدي" فـوق فراشـه رافعًـا عنـه الغطاء الصـوفي الـذي كان يلتحـف بـه فصدمـه تيـار بـارد مـن الهـواء، يناسـب الجـو القـارس المميـز لشـتاء ينايـر.. كان الليـل مايـزال يسـدل أسـتاره عـلى الأجـواء فحـاول أن يركـز بـصره ليخـترق حجـب الظـلام التـي تجمعـت أمـام عينيـه، لكنـه لم يتمكـن.. فقـط كان جـل مـا اسـتطاعه أن يحـاول الإنصـات لهـذه الأصـوات الخافتـة..

بعـد فـترة قصـيرة تمكنـت أذنـاه مـن تمييـز صـوت ضحكـة طفوليـة صغـيرة أشرق لصداهـا روحـه، لكـن في نفـس الوقـت إنتابـه إحسـاس غامـض بالخـوف الشـديد فـور سـماعها،

خـوف لا يعلـم لـه سـببًا.. دفعـه ذلـك الخـوف إلى توخـي المزيـد مـن الحـذر، فتحـرك عـلى أطـراف أصابعـه في إتجاهها..

خـارج غرفتـه كان هنـاك ممـر طويـل يوجـد في نهايتـه غرفـة لهـا بـاب مغلـق، مـن جهتـه يصـدر الصـوت.. لم يكـن البـاب مغلقًـا بالكامـل بـل كان مواربًـا فقـط، يسـمح بخـروج الصـوت مـن الغرفـة وكـذا بصيـص مـن نورهـا يكفـي لإضـاءة الممـر..

تحـرك ببـطء شـديد يجـر قدمـاه في إتجـاه بـاب الغرفـة، كأن أقدامـه مربوطـة إلى الأرض بحجـر ثقيـل.. توقـف في منتصـف المسـافة بعـد أن سـمع تلـك الضحكـة الطفوليـة مجـددًا تـتردد في فضـاء المـكان.. تلفـت حولـه لكنـه لم يجـد لمصدرهـا أي أثـر..

أكمـل سـيره مقتربًـا مـن البـاب أكـثر فأكـثر.. ومـع إقترابـه كان قلبـه يخفـق بشـدة ويعلـو صـوت دقاتـه، حتـى كادت تلـك الدقـات أن تشـكل إيقاعًـا متجانسًـا مـع وقـع خطواتـه المتجهـة إلى الغرفـة.. حـاول أن يختلـس النظـر مسـتغلًا تلـك الفرجـة البسـيطة في البـاب علهـا تسـمح لـه بالرؤيـة، لكنهـا لم تكـن كافيـة..

فجـأة سـمع صـوت صراخ أنثـوي يـدوي عاليًـا داخـل الغرفـة، اسـتجمع شـجاعته وأمسـك بمقبـض البـاب بيـد مرتعشـة.. وبـدأ في دفعـه ببـطء شـديد.. و..

إنتفـض جالسًـا عـلى فراشـه والعـرق الغزيـر يتصبـب مـن جسـده.. كابـوس جديـد كتلـك التـي إعتـادت أن تقلـق منامـه كل ليلـة في الأونـة الأخـيرة.. تلفـت حولـه في قلـق حـين سـمع "ليـلى" زوجتـه تسـأله في لامبـالاة:

- كابوس برضه؟!.

إلتفـت نحوهـا بحـدة بعـد أن إغتـاظ مـن سـؤالها السـخيف.. كانـت تنظـر لـه مـن أسـفل جفنيهـا المتثاقلـين، مايـزال النعـاس يسـيطر عليهـما فبـات منظرهـما غريبًـا.. لا هـما بالمفتوحـين ولا بالمغلقـين، فقـط جفنـان منتفخـان يصـدر مـن خلفهـما نظـرات جامـدة لا أثـر فيهـا للحيـاة.. حالـة عجيبـة مـن اللامبـالاة والتبلـد انتابـت زوجتـه مؤخـرًا، كانـت تسـبب لـه ضيقًـا منهـا كدأبهـا حيـال كل الأمـور في الفـترة الأخـيرة.. تجـاوز تلـك المشـاعر السـلبية التـي إجتاحتـه دفعـة واحـدة حـين سـمع صوتهـا، وحـاول أن يجعـل الحـوار بينهـما عاديًـا فسـألها:

- خدتي الدوا بتاعك؟!.

- أُمال يعني أنا خِلقتي كِده.

أيقـن أنـه لا فائـدة مـن الحـوار معهـا فآثـر السـلام، وانتفـض مـن الفـراش مغـادرًا غرفـة النـوم نحـو الشرفـة عـسى أن يسـاعد هوائهـا البـارد عـلى تصفيـة ذهنـه.. توقـف في منتصـف الممـر الموصـل لهـا حـين سـمع صـوت نفـس الضحكـة الطفوليـة يصـدر مـن غرفـة مغلـق بابهـا باحـكام منـذ فـترة.. هـم بـأن يفتحـه لكنـه عـدل عـن رأيـه في اللحظـة الأخـيرة بعـد أن شـعر بغصـة مؤلمـة في حلقـه فأكمـل الطريـق نحـو الشرفـة..

وقـف يسـتمتع بلسـع الهـواء البـارد في وجهـه ورقبتـه ثـم أشـعل سـيجارة أخـذ يسـتمد مـن دخانهـا قليـل مـن الـدفء.. كان النعـاس قـد فارقـه تمامًـا فتداعـت أمامـه ذكريـات وأفـكار عديدة..

فكـر في "ليـلى" التـي لم يعـد بينهـما وفـاق مـن أي نـوع بعـد أن كانـت حياتهـما هادئـة، يتحـاكى النـاس بحسـن عشرتهـما.. سـأل نفسـه كثـيرًا هـل أحبهـا؟!، أم أنـه كان فقـط التعـود؟!..

كانـت لـه فلسـفة خاصـة في شـأن الحـب.. كان مقتنعًـا في قـرارة نفسـه أنـه لا وجـود لمـا يسـمى بالحـب، لكنـه فقـط الاعتيـاد.. فالرجـل يتعـود عـلى إمـرأة معينـة حتـى تتأصل فيه

تلـك العـادة، فيظـن أنـه يحبهـا.. تمامًـا كالسـجائر، فـما الفـرق بـين مـن يدخـن "المارلبـورو" ومـن يدخـن "الميريـت"؟!.. لاشـئ عـلى الإطـلاق، فقـط التعـود.. حتـى أننـا حـين نتحـدث عـن تلـك العـادة نقـول أننـا نحـب السـجائر ماركـة كـذا ولا نقـول أننـا نعتـاد عليهـا.. إرتسـمت عـلى شـفتيه إبتسـامة واسـعة وهـو يسـحب نفسًـا عميقًـا مـن سـيجارته ثـم ينفثـه في قـوة مراقبًـا تراقـص دوائـر دخانـه أمـام عينيـه،كان معجبًـا بتحليلـه للأمـور..

لكـن مشـكلته كانـت تكمـن في أنه رجـل متعـدد الأذواق.. فتـارة تعجبـه "المارلبـورو" وتـارة أخـرى تفتنـه "الميريـت"، وأحيانًـا تشـتاق نفسـه إلى "الكليوباتـرا".. وكـذا كان حالـه مـع النسـاء، مـرة يصحـب الشـقراء الراقيـة، أخـرى بيضـاء مثقفـة، ولا يوجـد أدنى مانـع مـن أن تكـون سـمراء شـعبية.. لايهـم، فقـط هـو يحـب النسـاء.. ليـس كلهـن بالطبـع، فقـط صاحبـات تلـك المواصفـات التـي حددهـا بدقـة شـديدة..

كان يفضلهـا أربعينـة متوسـطة الطـول والقـوام، أرملـة أو مطلقـة أو حتـى متزوجـة.. يشـترط فقـط ألا تكـون عـذراء.. لهـا شـعر ناعـم قصـير أيًـا كان لونـه، أمـا عـن باقـي التفاصيـل فلـم تكـن تسـبب لـه مشـكلة مـن أي نـوع.. فقـد كان مؤمنًـا أن كلهـن متسـاويات في نهايـة الأمـر،لا فـرق بـين قبلـة

إحداهـن وأخـرى.. كان دائمًـا مـا يفخـر بقولـه أمـام أصدقائـه "إجعـل الإضـاءة خافتـة أو اطفئهـا تمامًـا، عندهـا تتسـاوى كل الأمـور"..

هـز رأسـه في عنـف طـاردًا عنهـا تلـك الأفـكار العابثـة التـي ضربـت عقلـه في هـذا التوقيـت الغريـب، وعـاد يفكـر في "ليـلى" مجـددًا.. كان يعلـم أنـه يحترمهـا ويقدرهـا فهـي المـرأة الفاضلـة الوحيـدة في حياتـه، كان ذلـك كافيًـا بالنسـبة إليـه كي يتزوجهـا.. لكنـه أبـدًا لم يشـعر معهـا بتلـك الـشرارة التـي كان يشـعر بهـا مـع غيرهـا..

"مـا الـذي غـير الحـال في الفـترة الأخـيرة؟!، لم أفقـد حتـى هـذا الإحـترام نحوهـا؟!".. سـأل نفسـه كثـيرًا دون أن يجـد إجابـة..

مـن جديـد سـمع تلـك الضحكـة الطفوليـة فالتفـت خلفـه سريعًـا لكنـه لم يجـد أحـد.. قطـب جبينـه في ضيـق، كان يعلـم بحكـم تخصصـه أنـه يعـاني مـن جـراء صدمتـه الأخـيرة.. يـدرك أنـه مريـض بحاجـة إلى العـلاج، لكنـه كان في ذات الوقـت ينكر قـدرة أحـد عـلى شـفاءه.. كان يعلـم بحكـم خبرتـه الطويلـة أن أصعـب أنـواع المـرض هـو المريـض المثقـف، حيـث يصـور لـه غـروره قدرتـه عـلى عـلاج نفسـه مـن أي عـارض يلـم بهـا.. فكيـف يكـون الحـال إذا كان المريـض طبيبًـا نفسـيًا؟!..

أغمـض عينـاه في ألم بعـد أن ضربتـه ذكـرى ذلـك الحـادث الـذي سـبب لـه تلـك الهـلاوس والأوهـام، ثـم فتحهـما في قـوة وهـو يدهـس بقدمـه بقايـا سـيجارته عـلى الأرض.. تذكـر ذلـك الحـوار الـذي دار بينـه وبـين "ليـلى" بالأمـس حـين كانـت تحـاول إقناعـه بالذهـاب إلى زميـل دراسـتهما الـذي أصبـح طبيبًـا نفسـيًا مرموقًـا الآن، الدكتـور "هشـام وهـدان".. لا يذكر عنـه الكثـير سـوى أنـه كان سـمجًا لزجًـا، ينافسـه عـلى الفـوز بقلـب "ليـلى".. لكنهـا إختارتـه هـو في النهايـة بالرغـم مـن عـدم خوضـه لغـمار هـذه المنافسـة لإيمانـه بأنـه لا توجـد فتـاة تسـتحق الـصراع مـن أجلهـا.. كان مبـدأه الـذي لا يحيـد عنـه، لا ينفـك يـردده دومًـا:

"إذا إحتـار قلبـك في الإختيـار بينـي وبـين غـيري، لا تختارينـي"..

زفر في ضيق ثم غمغم وهو يغادر الشرفة:

- حسنًا يا دكتور، فلنلهو سويًا قليلًا.. وليفز الأفضل.

***

وقـف "أكـرم" أمـام المـرآة الضخمـة لـدولاب ملابسـه طويـلًا.. يتأمـل هيئتـه بعـد أن شـارف عـلى بلـوغ الأربعـين، كانـت قـد اختلفـت كثـيرًا عـما مـضى.. فبعـد صدمتـه الأخـيرة

أهمـل في مظهـره، وأصبـح لا يكـترث بتصفيـف شـعره خصوصًـا بعـد ظهـور تلـك الشـعيرات البيضـاء فيـه.. فقـد شـغفه القديـم بالإهتـمام بهندامـه بعـد أن كان يقـضي وقتًـا في إختيـار الألـوان المتناسـقة.. أصبـح ينـسى حلاقـة ذقنـه التـي كان يهتـم بهـا صبـاح كل يـوم.. حتـى جسـده الـذي يحـرص عليـه فـكان رياضيًـا ممشـوقًا ظهـر فيـه بـروز خفيـف عنـد البطـن.. لـوى "أكـرم" شـفته السـفلى في امتعـاض ثـم نظـر لسـاعة يـده، كان موعـده مـع الدكتـور "هشـام وهـدان" في تمـام الخامسـة مسـاءًا..

مازالـت أمامـه فسـحة مـن الوقـت، قـرر أن يلبـي طلـب واحـدة مـن مرضـاه القدامـى حادثتـه صبـاح اليـوم لتحديـد موعـد.. وجـد أنهـا فرصـة جيـدة للمـرور عـلى عيادتـه التـي أغلقهـا منـذ أكـثر مـن عـام، بعـد أن حـدث مـا حـدث..

نظـر نحـو "ليـلى" التـي كانـت مسـتلقية كعادتهـا في الفـراش، لا هـي بالنائمـة ولا بالمسـتيقظة.. عيناهـا مسـتقرتان عنـد نقطـة وهميـة في سـقف الغرفـة، لا تتوقـف عـن التحديـق فيهـا.. أغمـض عينـاه في ضجـر ثـم قـال:

- أنا نازل، عايزة حاجة؟.

حركـت عيناهـا ببـطء شـديد نحـوه ثـم مضـت تتأمـل هيئتـه الغـير متناسـقة ولم تعقـب، أشـاحت بوجههـا عنـه ثـم

عـادت لسـيرتها الأولى تتأمـل سـقف الغرفـة.. هـز "أكـرم" كتفيـه في لامبـالاة ثـم تحـرك مغـادرًا الشـقة.. لم يعـر أدنى انتبـاه لصـوت الضحكـة الطفوليـة الـذي عـاد يـرن مجـددًا في ممـر الشـقة قبـل أن يغادرهـا..

طـوال الطريـق مـن مـصر الجديـدة حيـث يسـكن وحتـى منطقـة الدقـي التـي تقـع بهـا عيادتـه كان عقلـه يفكـر في تلـك المريضـة التـي مازالـت تـصر عـلى الـتردد عـلى عيادتـه.. وعـلى الرغـم مـن إيمانـه الراسـخ بخطـأ الإعتقـاد الشـائع مـن أنـه يكفـي المريـض الذهـاب مـرة أو مرتـين للطبيـب النفـسي حتـى يتـم شـفاؤه.. فالطبيـب النفـسي في رأيـه أشـبه برجـل يحفـر حفـرة هائلـة في نفـس كل مريـض كي يصـل إلى أعـماق نفسـه ويسـبر أغوارهـا، يعـرف علتـه ويحـاول علاجـه.. وعمليـة الحفـر هـذه أو العـلاج قـد تسـتمر شـهورًا وسـنوات، بـل قـد تمتـد لتكـون عمـرًا بأكملـه.. عمـر المريـض، وعمـر الطبيـب!!..

إلا أنـه كان موقنًـا كذلـك بوجـود طائفـة مـن المـرضى يكـثرون مـن الـتردد عـلى العيـادات النفسـية لمجـرد التـزود بجرعـة مـن الراحـة يجدونهـا لدى الطبيـب.. أو بدافع السـعي وراء الموضـة، كـما هـو حـال عمليـات التجميـل هـذه الأيـام.. دون أن يسـتدعي مرضهـم كل هـذا الـتردد، بـل قـد لا يكونـون

مـرضى مـن الأسـاس، فقـط هـم يعانـون مـن فـراغ شـديد.. مـع مـرور الوقـت يتحـول تـردد بعضهـم عـلى العيـادات النفسـية إلى إدمـان، تمامًـا كإدمـان الخمـر أو المخـدرات.. كان في غالـب الأحيـان لا يقبـل هـذه النوعيـات مـن المـرضى، غـير أن بعضهـم كان إسـتثناءا.. و"صفـاء عبدالحميـد" كانـت واحـدة مـن بـين هـذه الإسـتثناءات..

أوقـف سـيارته صـف ثـاني أمـام العـمارة التـي تقـع بهـا العيـادة في شـارع التحريـر بالدقـي.. رأى عـم "صـلاح" البـواب جالسًـا عـلى كـرسي خشـبي أمـام مدخـل العـمارة يدخـن سـيجارة وينظـر نحـوه بـلا إكـتراث، فتحـرك نحـوه بعـد أن وضـع يـده في جيبـه.. انتفـض الرجـل العجـوز مـن مكانـه واقفًـا فـور أن شـاهده يضـع يـده في جيبـه وألقـى بسـيجارته أرضًـا، ورسـم عـلى وجهـه علامـات ترحيـب زائفـة ثـم صـاح:

- أهـلًا أكـرم بيـه، حمداللـه عـلى السـلامة يـا باشـا.. دي العـمارة نـورت واللـه.

نقـده "أكـرم" ورقـة مـن فئـة الخمسـين جنيهًـا فتلقاهـا العجـوز وعينـاه تلمعـان بجشـع واضـح ثـم قبلهـا في حنـان ودفنهـا في جيـب جلبابـه البنـي.. صعـد "أكـرم" درجـات السـلم في هـدوء تتبعـه دعـوات وبـركات عـم "صـلاح"، وهـو يفكـر مبتسـمًا أن بـواب العـمارة هـو أهـم شـخصية بهـا.. لـو

علـم السـكان أهميـة هـذه الخمسـين جنيـه لأغدقـوا عليـه الأمـوال، ولأصبـح البـواب أغنـى مـن أي سـاكن في العـمارة..

تذكـر وقـت أن كان طبيبًـا شـابًا، يصحـب الفتيـات لعيادته فـكان عـم "صـلاح" يمنـع صعودهـم.. حتى تشـاجر معـه ذات يـوم وهَـمَّ بتعنيفـه إلا أنـه فوجـئ بـه يصيـح بأعـلى صوته:

"هذه عمارة محترمة وسكانها ناس أفاضل"..

ذكـره بـأن السـت أمـه حـين كانـت تقيـم في الشـقة قبـل أن يحولهـا لعيـادة لم يكـن أحـد يسـمع لهـا صوتًـا.. ابتسـم حـين تذكـر ذلـك الخـوف والتوتـر اللـذان سريـا في عروقـه وقتهـا، لكـن فطنتـه التـي ورثهـا عـن أمـه جعلتـه يحسـن التـصرف فوضـع يـده في جيبـه وأخـرج ورقـة مـن فئـة الخمسـة جنيهـات شـهق لهـا عـم "صـلاح" مـن الفرحـة..

مـن ذلـك الوقـت وعـم "صـلاح" يقـوم بتوصيـل ضيوفـه وخاصـة النسـاء حتـى بـاب العيـادة، بـل ويجلـس في انتظارهن حتـى يغـادرن ويحـرص عـلى توديعهـن وداعًـا مصحوبًـا بـأرق العبـارات والأمنيـات بقضـاء سـهرة سـعيدة.. بالطبـع لم تعـد تلـك الخمسـة جنيهـات تكفـي بـل زادت كل فـترة لتتناسـب طرديًـا مـع زيـادة الأسـعار وإرتفـاع سـعر الـدولار!!.. حتـى أصبحـت الخمسـة جنيهـات خمسـون جنيهًـا!!.

دفع بيده باب العيادة فأصدر صريرًا خافتًا يناسب تلك الفترة التي بقيت خلالها الشقة مغلقة.. ضغط على زر الإضاءة فلم تستجب له الكهرباء.. حاول معه مرة أخرى لم بلا جدوى.. خرج إلى سلم العمارة مناديًا على عم "صلاح" الذي صعد السلم برشاقة لا تناسب سنوات عمره السبعين.. أخبره عم "صلاح" أن فواتير الكهرباء تراكمت على الشقة وأنه قد أرسل له أكثر من مرة دون إجابة، لم يجد محصل الكهرباء أمامه سوى أن يفصل العداد عن الشقة.. تبرم "أكرم" في ضيق، لكن عم "صلاح" كان عنده الحل كالعادة..

أخبره أنه يمكن أن يمنحه توصيلة مؤقتة ينير بها العيادة حتى يمنحه المال اللازم لسداد قيمة الكهرباء المتأخرة.. وافقه "أكرم" على الفور وهم بالدخول للعيادة لكنه سمع نحنحة مهذبة من عم "صلاح".. رماه "أكرم" بنظرة حانقة ثم مد يده في جيبه وأخرج ورقة خمسينية أخرى ووضعها في قبضته.. إنهالت عليه الدعوات والبركات من فم عم "صلاح" حتى خيل إليه أنه لن يتوقف..

تركه "أكرم" متأففًا ودخل إلى العيادة على ضوء كشاف هاتفه المحمول.. من خلال ضوءه الخافت لاحظ أن كل

شئ في مكانه تمامًا كما تركه من عام بالتمام والكمال، فقط بعض التراب والغبار المتراكم..

تحرك نحو غرفته الخاصة بعد أن ترك باب العيادة مفتوحًا حتى يتمكن عم "صلاح" من عمل التوصيلة المطلوبة.. نظر نحو مكتبه بتردد ثم استجمع شتات نفسه وجلس خلفه.. أخذ نفسًا عميقًا حين تذكر أيامه الخوالي في هذه العيادة.. ارتسمت على محياه إبتسامة خفيفة، مد على اثرها يده فاتحًا الدرج الأيمن العلوي من المكتب.. عبث قليلًا في محتوياته على ضوء الكشاف حتى عثر على ملف أحمر اللون مكتوب عليه "ملف السيدة/ صفاء عبدالحميد".. فتحه أمامه ثم بدأ يقلب في أوراقه وذكريات تعارفه عليها تلح على عقله..

قابلها للمرة الأولى منذ خمس سنوات.. في ذلك المركز الرياضي الشهير على ضفاف نيل الجيزة، رواد هذا المركز هم صفوة المجتمع ونجومه.. لم تكن لديه مشكلة في تحمل تكلفة الإشتراك به، على الرغم من تكلفته الباهظة إلا ان إيمانه بأهمية المحافظة على تناسق جسده كانت تفوق تلك التكلفة..

في هذا اليوم كان قد أنهى تدريباته اليومية الصارمة، التي تبدأ في تمام الثامنة من كل صباح.. أنتفخت عروقه

وبـرزت عضـلات صـدره وذراعيـه القاسـية مـن تحـت ملابسـه الرياضيـة، أكسـبه العـرق المنتـشر عـلى وجهـه ورقبتـه جاذبيـة أضافـت لوسـامته الطبيعيـة رونقًـا خاصًـا.. لم يعـد باقيًـا أمامـه ليختتـم برنامجـه اليومـي سـوى نصـف سـاعة فقـط يقضيهـا في السـير عـلى تلـك الآلـة المخصصـة لممارسـة رياضـة المـشي..

هنـاك التقاهـا للمـرة الأولى، كانـت تركـض عـلى الآلـة المجـاورة لـه بالضبـط.. كان شـكلها في الطبيعـة أجمـل بكثـير عـما شـاهده عـلى الشاشـة.. حقًـا هـي تبـدو أقـصر قليـلًا وأنحـف بعـض الشـئ.. إلا أن بيـاض بشرتهـا كان بالفعـل ثلجيًـا، وشـعرها القصـير كان حقًـا أحمـر.. تشـاغل عـن متابعـة فتنتهـا الأخـاذة بالركـض بعـد أن كان يخطـط لممارسـة المـشي، غـير أن عينيـه خانتـاه بعـد برهـة قصـيرة وأخذتـا تختلسـان النظـرات لرجرجـة جسـدها البـض أسـفل ملابسـها الرياضيـة الكاشـفة.. كان جسـدها سـاحرًا بحـق تشـعر حـين تـراه برغبتـه العارمـة في الإنطـلاق، كأنهـا مهـرة بريـة جامحـة تبحـث عـن حريتهـا.. تناسـق سـاقاها مـع إسـتدارة ردفيهـا تـرى فيهـم مدلـول كلمـة الإعجـاز، كأن جسـدها منحـوت بيـد أمهـر نحـاتي العـالم بـأسره..

أخـذت نظراتـه تسـتكين عـلى مفاتنهـا شـيئًا فشـيئًا، كان ذلـك كافيًـا لأن يـشرد ذهنـه عـن متابعـة حركـة قدميـه عـلى

آلـة المـشي فسـقط متعـثرًا مـن فوقهـا.. اعـتراه حـرج بالـغ حين حـاول النهـوض، بقـي رأسـه منكسًـا لا يجـرؤ عـلى مواجهـة أعـين رواد المركـز المتطفلـة.. إنتبـه عـلى يـد رقيقـة تمتـد لـكي تعاونـه عـلى النهـوض، سـمع صوتًـا أنثويًـا رائقًـا يخاطبـه:

- ولا يهمك مايقع إلا الشاطر.

رفـع رأسـه صـوب محدثتـه دون أن يعقـب، تحامـل عـلى نفسـه حتـى وقـف دون أن يسـتعين بيدهـا.. بادرتـه قائلـة:

- إنت بقى الدكتور أكرم رشدي؟!.

- حضرتك تعرفيني؟!.

سألها بتعجب، فأردفت في دلال:

- طبعًـا، هـو في حـد يشـوف القمـر ده ومـا يحاولـش يعرفـه.

باغتـه أسـلوبها الهجومـي وشـعر بالدمـاء الحـارة تندفـع إلى وجنتيـه، لكنـه لم يستسـلم لهـا فحـاول التماسـك أمامهـا ليظهـر أنـه مجـرب خبـير فقـال:

- هو في قمر ممكن يتشاف جنب الشمس؟!.

أطلقت ضحكة رنت في أرجاء المركز وتراقصت معها قلوب رواده، رمته بنظرة ناعسة من عينيها الزرقاوتين ثم قالت:

- طيب ابقى خللي بالك بعد كده، اللي يبص للشمس كتير ممكن يعمى.

تعددت لقاءاتهما بعد ذلك اليوم كثيرًا، توطدت علاقتهما فقد كان إعجابهما متبادلًا.. فعلى الرغم من فارق العمر بينهما الذي يجاوز سبع سنوات، لم تجد هي أدنى حرج في صحبته.. أما هو فلم يكن يعي ما يفعله، فقط كان منساقًا وراء إعجابه بها دون أن يجد له مبررًا.. أكثرت من زيارته في عيادته تشكو له من معاناتها مع زوجها السابق، الذي كان لا يرى فيها سوى وجه جميل وجسد يشتهيه للمتعة على فترات متباعدة.. حكت له عن طلاقها منه بعد أن ضبطته متلبسًا بخيانتها.. شكت له إحساسها الفظيع بالوحدة، شعورها البغيض بالحرمان.. أخبرته بكل حواسها أنها تعاني من فراغ شديد..

كان يعلم بحكم مهنته معنى تلك النظرات اللامعة التي ترميه بها حين ينفردان في حجرة مكتبه، يدرك أنها فطنت لسقوطه أسيرًا في شرك جسدها الساحر.. كان موقنًا من أنها نجحت في قراءته وفك طلاسمه، تمامًا كما كان

يحاول هو أن يفعل.. لم يكن يصدق نفسه، ولم يدر ماذا يفعل؟!.. كان يحاول الهرب من شراكها دومًا بالتقليل من قدر نفسه في حديثه معها، لكنها كانت دائمًا تقول بنبرة صادقة:

- بلاش تواضع، أكيد انت عارف قدرك كويس.

لم يستطع مقاومة فتنتها كثيرًا فاستسلم صاغرًا، وفي نهاية الأمر ألقى بنفسه في أحضانها الدافئة.. حين قبلها أول مرة كانت قبلته هادئة تحمل خوفًا ونهمًا في وقت واحد.. أزاحته من فوق شفتيها برفق ثم قالت ضاحكة:

- انت محتاج دروس كتير على فكرة.

لم يفهم معنى عبارتها في ذلك الوقت، لكنه الآن يعلم أنها قد لقنته من فنون الحب ما قد تعجز كبرى الجامعات والمدارس عن تعليمه..

إنتبه من شردوه وأفكاره حين أضاءت غرفة المكتب فجأة، تلفت حوله مندهشًا من قدرات عم "صلاح" التي تفاجئه على الدوام.. سمع حركة خافتة عند مدخل العيادة، بعد وهلة ظهرت "صفاء" تقف على باب غرفة مكتبه.. تميل قليلًا بنصفها العلوي فيظهر نهداها بارزين

خـارج قميصهـا المفتـوح.. ترجـع برأسـها للـوراء قليـلًا فتهتـز خصلـة حمـراء مـن شـعرها الناعـم ثـم تقـول في غنـج:

- انت هتفضل قاعد عندك كتير.

ارتفعــت حــرارة جســده وفــارت دمــاؤه فيــه فاندفــع نحوهـا حتـى وقـف أمامهـا يتأمـل بديـع خلقتهـا، فجـأة رفـع كفـه ثـم هـوى بـه عـلى وجههـا في قـوة.. تأوهـت في ميوعـة ثـم قالـت:

- وحشتني يا طفلي العنيد.

صفعهـا مـرة أخـرى فتأوهـت مجـددًا، مـد يـده يجذبهـا نحـوه فشـعر بهـا تلـين بـين ذراعيـه مرتميـة في صـدره القـوي.. تنـاول شـفتيها المكتنزتـين ناهـلًا منهـما مـا لم يشـبع منـه أبـدًا..

***

(٣)

كانـت عقـارب سـاعة يـد "أكـرم" قـد أشـارت إلى تجاوزهـا الخامسـة والنصـف حـين أوقـف سـيارته أمـام "كوسـتا كافيـة" بشـارع جامعـة الـدول العربيـة في حـي المهندسـين، حيـث كان موعـده المـضروب للقـاء "هشـام وهـدان".. كانـا قـد فضـلا أن يكـون اللقـاء في مـكان عـام خـارج عيـادة الأخـير حتـى يتمكنـا مـن كـسر الحواجـز بينهـما في البدايـة..

وقـف يعـدل هندامـه أمـام زجـاج الكافيـة بعـد أن انعكسـت صورتـه عليـه.. كان قـد اسـتعاد الكثـير مـن ثقتـه في نفسـه بعـد أن أنهـى لقائـه الملتهـب مـع "صفـاء".. عـاد لوجهـه تـورده وشـعر بعـودة الدمـاء لشـتى أجـزاء جسـده..

عـدل بكفـه خصلـة نافـرة مـن شـعره، وابتسـم حـين تذكـر كيـف كانـت تجذبـه مـن شـعره وتنشـب أظافرهـا في ظهـره

وهـي تتـأوه مـن فـرط نشـوتها.. دخـل إلى الكافيـة شـاحذًا كل أسـلحته للقـاء زميـل دراسـته القديـم..

رآه مـن بعيـد جالسًـا في القسـم المخصـص لغـير المدخنـين، أشـار لـه بيـده محييًـا فقـام "هشـام" يسـتقبله حـين اقـترب منـه.. وجـده كـما تركـه بالضبـط لم يتغـير فيـه شـئ سـوى قليـل مـن الشـعر الأبيـض غـزا رأسـه، وذلـك الشـارب واللحيـة الدوجـلاس اللـذان تركهـما ينبتـان عـلى وجهـه.. طويـلًا رفيعًـا، نحيـل الوجـه.. نظـارة طبيـة أنيقـة تقـف أمـام عينيـه اللامعتـين كأنهـما تحرسـانهما.. تفاحـة آدم تـبرز بوضـوح في منتصـف رقبتـه بالضبـط.. كل شـئ فيـه مرتـب منمـق، لكـن ذوقـه ارتقـى كثـيرًا في الملبـس فلـم يعـد واضحًـا عليـه أصولـه الريفيـة مـن اختيارتـه الفاقعـة للألـوان كـما كان معتـادًا منـه..

بعـد تحيـة فاتـرة جلـس "أكـرم" عـلى مقعـد مقابـل لمقعـد "هشـام"، الـذي نظـر في سـاعته كأنـه يلومـه عـلى التأخـير ثـم قـال:

- أنـا فضلـت يكـون ميعادنـا بـره العيـادة، علشـان نكـون عـلى راحتنـا.

- هو أنا إتأخرت عليك شوية؟!.

قالهـا "أكـرم" بطريقـة مسـتفزة، لكـن "هشـام" تجاوزهـا بابتسـامة صفـراء ثـم قـال:

- تشرب إيه يا أكرم؟.

- دوبل اسبرسو.

أشـار "هشـام" للنـادل اثـر عبـارة "أكـرم" الأخـيرة فحـضر مـن فـوره وأضـاف للقهـوة شـايًا أخـضر طلبـه "هشـام".. ارتسـمت ابتسـامة خفيفـة عـلى شـفتي "أكـرم" بعـد أن سـمع طلـب "هشـام"، كان آخـر مـا يذكـره عنـه أنـه لا يـشرب الشـاي إلا مغليًـا.. بعـد إنـصراف النـادل نظـر "هشـام" نحـو "أكـرم" مليًـا ثـم قـال بهـدوء:

- إيه أخبارك يا أكرم؟!.

دقـق "أكـرم" في وجهـه لبرهـة فوجـده هادئًـا ليـس فيـه مـا يبعـث عـلى العصبيـة، إلا أن عينـاه كانتـا تلمعـان بذلـك البريـق الخبيـث الـذي كان مشـهورًا عنـه أيـام الجامعـة.. ضاقـت حدقتـا "أكـرم" وباغتـه قائـلًا:

- ليلى قالتلي انها اتصلت بك.

- صحيح.

أجاب من فوره دون أدنى تردد، وإن كانت عيناه قد ازداد بريقهما.. ابتسم "أكرم" حين علم أنه قد أصاب غريمه بالتوتر وقال:

- ياريت ماتصدقش كل كلامها، انت عارف ان الصدمة كانت كبيرة عليها.. الله يكون في عونها ويصبرها، دي كانت مش...

- وانت يا أكرم، أخبار الصدمة معاك إيه؟.

"هذا اللعين، يحاول أن يلعب معي دور الطبيب النفسي".. حدث بها "أكرم" نفسه وهو يجز على أسنانه غضبًا، لكنه تمالك أعصابه مرتديًا قناع الهدوء وقال بنبرة رصينة:

- فعلًا الصدمة كانت قوية عليا، لكن هنعمل إيه؟!.. أمر الله.

- صحيح، ربنا يصبرك.

ضاقت حدقتا "هشام" بعد أن قال عبارته الأخيرة، ثم تفحص تعبيرات وجه "أكرم" جيدًا.. ساد الصمت بينهما لفترة عندما جاء النادل يحمل ما طلباه، كانت بمثابة الهدنة بينهما حتى يستعدا للجولة الثانية من النقاش.. لكن "أكرم" لاحظ أثناء وضع النادل للطلبات على المائدة

إلتفاتة سريعة من عيني "هشام".. لفتة تحمل نظرة خاطفة لها ذات البريق الخبيث حين أبصر يد "أكرم" اليسرى خالية من خاتم الزواج.. إغتاظ "أكرم" لما فعله "هشام" فثبت نظره على عيني الأخير.. فما كان منه إلا حول بصره صوب فتاة كانت تجلس على مائدة بالقرب من مجلسهما..

ارتسمت ابتسامة ظفر على وجه "أكرم" وحدث نفسه:

"أهذا كل ما لديك يا دكتور؟!، لعلك نسيت أني أيضًا طبيب نفسي.. كلنا نفعل نفس الشئ عندما نشعر أن غريبًا ضبطنا ننظر إلى شئ يملكه، لانريد أن نجعله يعلم بنظراتنا فنحيد بها على الفور نحو أقرب الجالسين منا.. حتى نخدع هذا الغريب، نقنعه أننا لسنا من النوع الذي ينظر لملك غيره"..

صب "هشام" شايه الأخضر في هدوء، ورشف منه على مهل بعد أن اعتدل في جلسته وأسند ظهره على الكرسي.. ثم قال:

- قول يا أكرم أنا سامعك.

استند "أكرم" بمرفقيه على الطاولة ثم قال بتحد:

- الحقيقة أنا مستغرب جدًا للوضع إللى إحنا فيه.

- ليه؟!.

- إيه إللى يخللي ليلى تتصل بك وتطلب مساعدتك؟!.

- ودي فيها إيه؟!.

ضحك "أكرم" مقهقهًا ثم تراجع بظهره للوراء وقال في سخرية:

- فيها ان ليلى دكتورة، وأنا كمان دكتور يا دكتووور.

مال "هشام" بجسده إلى الأمام، واستند بمرفقيه إلى المائدة كأنه قبل التحدي ثم قال:

- صحيح، بس أكيد انت عارف يا دكتور ان المريض النفسي مستحيل يقدر يعالج نفسه.

أخرج "أكرم" علبة سجائره وأشعل واحدة منها، وأخذ ينفث دخانها في عصبية ثم قال:

- مش صحيح.

- مش فاهم.

- لأن علم النفس أصلًا مبني على ان المريض يعالج نفسه بنفسه.

- فعلًا، لكن ده لا يمنع أن الدكتور دوره مهم في كشف أعماق المريض أمام نفسه.

مط "أكرم" شفتيه في ضيق ثم قال:

- مش مهم، مش عاوز ادخل معاك في جدل مالوش لازمة.. المهم لو ليلى كلمتك تاني قولها اني مش محتاج علاج، وأنا هبقى أتصرف.

رماه "هشام" بنظرة متحدية ثم قال:

- آسف، ماقدرش اعمل كده.

قال "أكرم" في تعجب فشل في مداراته:

- يعني إيه ماتقدرش؟!.

أردف "هشام" وقد إزداد لمعان عينيه:

- يعني ماقدرش أتخلى عن مسئوليتي تجاه كل إللي بيلجأ لي.

جز "أكرم" على أسنانه ثم قام واقفًا في غضب، لملم أشياؤه من فوق المنضدة ثم تذكر شيئًا فلمعت عيناه وقال بنبرة ذات مغزى:

- قوللي يا هشام، هو انت اتجوزت ولا لسه؟.

تراجع "هشام" إلى الخلف كالملدوغ، لكنه تمالك نفسه سريعًا ثم أجاب:

- لسه، لكن ليه السؤال؟!.. عندك عروسة؟!.

ارتسمت على شفتي "أكرم" إبتسامة ساخرة ثم قال متهكمًا:

- ياريت، كان نفسي أساعدك.. بس على العموم ماتقلقش، أكيد هتلاقي واحدة تناسب مستواك.

صمت بعدها قليلًا ثم قال وهو يضغط حروف كلماته ليفهم "هشام" مقصده:

- متشكر على وقتك يا دكتور، وياريت نبقى نتقابل تاني.

قالها "أكرم" ثم انصرف مغادرًا المكان دون أن ينتظر ردًا، ترك "هشام" وحده يراجع كل كلمة دارت في حوارهما بعد أن استند بظهره إلى المقعد.. جز "هشام" على أسنانه في ضيق وهو يلعن الساعة الذي وافق فيها على مقابلة هذا المتغطرس المغرور.

***

مضى وقت طويل لم يُحْصه "أكرم" انهمرت فيه المياه الساخنة في تتابع ورتابة من صنبور الإستحمام على رأسه التعب ووجهه المنهك.. كان لصوت إنسيابها أثرًا طيبًا على ذهنه بعد أن إستفاق جسده قليلًا، واستعاد جزءًا من حيويته بفعل البخار الكثيف الذي ملأ الحمام وتكاثفت قطراته على جدرانه.. أخذ عقله ينشط شيئًا فشيئًا بعد أن ذهب عنه مفعول الكحول قليلًا.. فبعد أن أنهى مقابلته مع "هشام وهدان" توجه إلى بار "ديلز" بالمهندسين، مكث فيه ما يقرب من ساعة واحدة شرب خلالها عدة كؤوس من شرابه المفضل "شيفاز ريجال".. كانت تلك عادته في الفترة الأخيرة، يحرص على المواظبة عليها بعد أن انقطع تمامًا عن ممارسة الرياضة..

حين عاد للبيت لم يجد "ليلى"، كان ذلك شيئًا غير إعتياديًا.. فلم يكن من عادتها مغادرة البيت بعد أن كان ما كان، وامتنعت عن الذهاب إلى الجامعة لمزاولة عملها.. لم يعر لغيابها اهتمامًا بل على العكس شعر بقدر يسير من الحرية، وقرر الحصول على حمام منعش يزيل به آثار لقائه مع "صفاء" ويسترد به حيويته..

خرج من حوض الإستحمام وقطرات الماء تتساقط من جسده العاري على أرضية الحمام البورسلين.. لم يتكبد عناء

تجفيف شعره واكتفى فقط بأن أحاط خصره بمنشفة من الحجم الكبير ثم توجه إلى غرفة نومه يجر خلفه خطًا طويلًا من الماء ظهر واضحًا على الأرضية الخشبية للممر الواصل بين الحمام وغرف النوم.. وقف طويلًا أمام المرآة الضخمة لدولاب ملابسه يتفرس في ملامحه جليًا، ينظر لجسده الذي بدا عليه الترهل قليلًا.. تساءل بحنق: "من هذا؟!"..

كان يشعر أنه ينظر إلى شخص آخر.. مؤكد أنه ليس هو "أكرم رشدي" كما يعرفه، وكما عرفه الجميع.. لم يكن يتخيل على الإطلاق أن يكون هذا هو نهاية المطاف بالنسبة إليه.. دومًا كان إيجابيًا، ينظر إلى نصف الكوب الممتلئ.. إرادته وعزيمته كانتا أبرز سمات شخصيته، تحميانه في كل الظروف.. حتى في أحلك اللحظات وأشدها قسوة كان دائمًا ما ينظر إلى بصيص النور البسيط الذي يظهر باهتًا في أقصى الصورة.. لكنه الآن يرى حطام إنسان، بقايا شخص كان يدعى في يوم ما "أكرم رشدي"..

أشاح ببصره بعيدًا بعد أن آلمه ما رأى، ثم هوى بيمينه في غضب على المرآة فتهشمت قطعًا صغيرة.. نظر إلى الدماء التي سالت من قبضته في سعادة غريبة بعد أن شكلت بقعًا داكنة حمراء اللون على أرضية الغرفة

الخشبية، لكنه تجاهلها حين لمح قميصًا أسود اللون ملقى داخل دولاب ملابسه.. مد يسراه يمسك قماشته الناعمة في إهتمام بعد أن تعجب من وجود ملابس "ليلى" الداخلية في دولابه، أخذ يتفحصه في فضول.. كان قميص نوم أسود اللون قصير للغاية، يبدو من تصميمه الفاضح أنه يكشف أكثر مما يستر من مفاتن صاحبته.. اتسعت حدقتاه حين لاحظ عند منطقة الصدر رسمًا لفراشة من الدانتيل.. ألقى بالقميص من يده في ذعر ثم تراجع إلى الخلف خطوتين بعد أن تذكر على الفور صاحبته.. هذا قميص "صفاء" المفضل، كانت معتادة على ارتدائه وقت لقاءاتهما المتعددة.. كان لهذا القميص مفعول السحر في نفسه تتحرك له كل غرائزه وشهواته..

التقطه مجددًا حين تذكر أن مجرد النظر إلى "صفاء" وقد إرتدت هذا القميص كان كفيلًا بأن يذهب عنه أي أثر للتعب والإرهاق، يتحرر حينها من مظاهر التحضر الزائفة التي تكبل نفسه ويرتد للبدائية الأولى معتنقًا من شهوانيته مذهبًا..

"هل يحبها؟، أم هي فقط الرغبة؟!".. دائمًا ما كان يسأل نفسه هذا السؤال دون أن يصل لإجابة قاطعة.. فقلبه كان لغزًا كبيرًا لكل من عرفوه، حتى هو نفسه لم

يتمكن من فك طلاسمه.. مؤكد أن قلبه لم يخفق بحبها حين تلاقت أعينهما لأول مرة، ذاك الخفقان المتسارع الغريب الذي يسلب الأنفاس ويسبب نشوة عجيبة لصاحبه.. لكن الأكيد أنه قد ألف صحبتها بعد أن ساندته كثيرًا في حياته وعلمته فنون الحب والحياة..

إنتبه من أفكاره وتساؤلاته حين تذكر أن "صفاء" كانت ترتدي هذا القميص قبل سويعات قليلة، عند لقائهما في عيادته..

"ماالذي جاء به هنا؟!، من الذي أتى به؟!".. استعرت تساؤلاته مجددًا لكن دون إجابة..

حاول التركيز حتى يتمكن من إخفاء هذا القميص قبل عودة "ليلى" للبيت.. لف قبضته بمنشفة صغيرة بعد أن رش فوق الجرح قليل من العطر ثم وضع القميص خلف ظهره في حركة لا إرادية، تحرك متجهًا نحو الغرفة التي كانت مغلقة منذ فترة طويلة.. منذ عام بالتحديد..

فتح بابها بيد مرتعشة ثم ضغط على مفتاح الإضاءة بها.. كان يتلفت حوله في توتر باحثًا عن مكان يصلح لإخفاء القميص فيه.. تحرك مقتربًا من الفراش الوردي الصغير الذي يتوسط الباب المقابل للباب تمامًا، من جديد سمع صوت تلك الضحكة الطفولية يملأ أرجاء

الغرفة.. حانت منه إلتفاتة نحو الفراش فتسمر في مكانه بلا حراك..

كانت طفلة صغير لا تتجاوز العامان تستلقي على ظهرها وتحرك أطرافها كأنها تداعب شخصًا خفيًا، تصدر تلك الهمهمات الطفولية الغير مفهومة ثم فجأة تصدر عنها تلك الضحكات التي باتت تؤرق حياته.. أغمض عيناه في قوة لا يصدق ما يراه، حين فتحهما لم يكن للطفلة أي أثر.. جن جنونه وأخذ يتلفت حوله في عصبية بحثًا عنها، لكن بلا جدوى..

وقعت عيناه على إطار فضي موضوع على منضدة وردية اللون صغيرة الحجم في أقصى يسار الغرفة.. تحرك نحوه بأقدام متثاقلة كأنه في واحد من كوابيسه التي باتت ترافقه في الآونة الأخيرة.. تغلب على ألم يده اليمنى من أثر الجرح حين أمسك بالإطار الفضي، ثم نظر للصورة الفوتوغرافية بداخله.. كانت تجمع بينه وبين "ليلى" و.. ابنته "فريدة".. كانت ملامحهم تنطق بالفرحة، وإبتسامتهم تشع ضياءًا من السعادة..

شعر بغصة في حلقه أخذ يقاومها في البداية فوضع الإطار الفضي في مكانه.. لكن عينه اليسرى ارتعشت رغمًا عنه، بدأت شفته السفلى في الإهتزاز قليلًا ومعها

بـدأ يفقـد قدرتـه عـلى المقاومـة.. فقـد السـيطرة عـلى نفسـه تمامًـا، وأجهـش في البـكاء كطفـل صغـير تركتـه أمـه وحيـدًا في الطريـق.. ولم يعـد إلى أحضانهـا أبـدًا..

انتفـض مسـتفيقًا مـن خيالاتـه المريضـة عـلى صـوت "ليـلى"، التـي فاجأتـه صائحـة في غضـب:

- إنت بتعمل إيه هنا؟!.

تغلـب عـلى إرتباكـه سريعًـا وعـلى الفـور أخفـى القميـص خلـف ظهـره، ثـم قـال متظاهـرًا بالهـدوء:

- كنت بدور على حاجة قديمة.

- هنـا!!، أنـا مـش قلـت الأوضـة دي محـدش يدخلهـا أبـدًا غـيري.

صرخـت في وجهـه بحـدة فأشـار لهـا بيـده أن تسـكت ثـم تحـرك يطفـئ مفتـاح الإضـاءة.. تحركـت "ليـلى" نحـو غرفـة النـوم، تمتمـت معترضـة عـلى تصرفاتـه بينـما عـاد "أكـرم" سريعًـا يخفـي القميـص الأسـود أسـفل المرتبـة الموضوعـة عـلى الفـراش الصغـير..

حـين ارتـدى ملابسـه حـاول كـسر حاجـز الصمـت الـذي كان يسـود علاقتـه مـع "ليـلى" منـذ فـترة طالـت حتـى ظـن أنهـا لـن تنتهـي أبـدًا.. سـألها برفـق:

- كنتي فين؟!.

رمتـه بتلـك النظـرات الجوفـاء مجـددًا ثـم ألقت بجسـدها فـوق الفـراش، ركـزت بصرهـا عـلى تلـك النقطـة الوهميـة ولم تـرد.. جـز عـلى أسـنانه في غضـب، لكنـه قـرر المحاولـة مـن جديـد فسـألها:

- اعملك شاي معايا؟!.

كان الصمـت المطبـق هـو الجـواب كالعـادة فاندفـع خارجًا مـن الغرفـة وهـو نـادم عـلى محاولـة التقـرب منهـا.. وقـف في المطبـخ يعـد لنفسـه كوبًـا مـن الشـاي فتداعـت في رأسـه الذكريـات مـن جديـد.. صـب شـايه في كـوب زجاجـي وأشـعل سـيجارة نفـث دخانهـا في ضيـق وهـو يلعـن تلـك الأفـكار والذكريـات البغيضـة التـي لا تنفـك تحـاصر خيالـه وذهنـه في كل لحظـة حتـى بـات كالمجنـون..

إبتسـم ابتسـامة خفيفـة حـين وصـف نفسـه بالجنـون، فقديمًـا كان يـرى ذلـك المجـذوب الـذي كان كل صبيـان الحـي يلقبونـه بفتحـي المجنـون..

قديمًـا وقـت أن كان صبيًـا.. كان يقيـم لـدى عمته في شـارع الجيـش بالعباسـية بعـد انفصـال أبويـه ومـوت أمـه.. لم يكـن هنـاك مـكان آخـر يأمـن فيـه عليـه أبـوه، خاصـة مـع ظـروف

عملـه التـي كانـت تسـتدعي تواجـده طويـلًا خـارج البيـت.. دائمًـا مـا كان يـرى هـذا المجـذوب مرتديًـا ملابـس باليـة ويجـر خلفـه شـوالًا مـن الخيـش ممتلـئ بالقمامـة وبقايـا الزجاجـات المهشـمة.. كان يـردد دائمًـا عبـارة واحـدة لا تتغيـر أبـدًا:

"ملعونة أنت يا سعاد.. ملعونة في السماوات والأرض"..

يبـدأ بعدهـا في سـب المـارة بأقـذع العبـارات والألفـاظ ثـم يقذفهـم ببقايـا الزجاجـات المهشـمة، وأطفـال الحـي يركضـون خلفـه يسـخرون منـه ويقذفونـه بالحجـارة والحـصى.. كان يهـزأ ورفاقـه مـن ذلـك المجنـون الـذي ذهـب عقلـه مـن حـب إمـرأة.. كانـوا يرونـه ضعيفًـا عاجـزًا..

كان هـذا المشـهد يتكـرر كل يـوم تقريبًـا حتـى أصبـح جـزءًا أصيـلًا مـن حيـاة أهـل الحـي.. فـلا الرجـل توقـف عـن السـباب ولا الأولاد توقفـوا عـن سـخريتهم منـه، ولا مسـئولوا الحـي تدخلـوا بإيـداع المسـكين مستشـفى الأمـراض العقليـة..

تناثـرت أقاويـل وشـائعات كثـيرة حيـال قصـة هـذا الرجـل لكـن أيًـا منهـا لم يقـارب الحقيقـة.. حتـى علـم بحقيقتهـا ذات يـوم مـن صاحـب أحـد الأكشـاك، الـذي أقسـم انـه كان يعـرف الرجـل قبـل أن تصيبـه تلـك اللوثـة..

أخـبره صاحـب الكشـك أن ذلـك المجـذوب إسـمه "فتحـي"، وأنـه كان يعمـل مدرسًـا للغـة العربيـة.. كان يحـب تلـك المـرأة "سـعاد" حبًـا جـمًا، وأن قصـة حبهـما كانـت تُـروى وتتناقـل عـلى ألسـنة أهـل الحـي.. كانـت مثـالًا يحتـذى بـه بـين العشـاق.. حتـى مرضـت المسـكينة مرضًـا عضـال، ولم يقـدر عـلى نفقـات علاجهـا فماتـت ببـطء أمامـه.. ذهبـت المسـكينة، وذهـب معهـا عقلـه بغـير رجعـة..

إبتسـم حـين أدرك أنـه لم يصبـح مجنونًـا بعـد، فحالتـه لم تـرق بعـد لحالـة "فتحـي".. أمسـك بهاتفـه المحمـول وأخـذ يداعـب شاشـته بأناملـه، يتأمـل أخـر الأخبـار مـن شـبكات المواقـع الإجتماعيـة.. سرقـه الوقـت فلـم يشـعر إلا حـين إنتصـف الليـل، دخـل إلى فراشـه وهـو يأمـل في نـوم عميـق يريـح بـه نفسـه مـن تلـك الأفـكار والهواجـس التـي تتنازعهـا.

***

(٤)

كانـت الأمطـار تنهمـر بغـزارة تناسـب طبيعـة الطقـس في مثـل هـذا الوقـت المتأخـر مـن ليـل شـتاء القاهـرة حـين أوقـف المقـدم "معتـز الشـامي" سـيارته أمـام أحـد البنايـات القديمـة في شـارع السـيد البكـري بحـي الزمالـك..

فتـح بـاب السـيارة عـلى عجـل فخرجـت غيمـة كثيفـة من دخـان سـجائره ترافـق جسـده الضخـم خـارج السـيارة.. ألقـى بأصابعـه الغليظـة مـا بقـي مـن سـيجارته المشـتعلة عـلى الرصيـف المبتـل فأصـدرت صوتًـا ملحوظًـا وسـط السـكون المخيـم عـلى الأرجـاء..

أحكـم إغـلاق سوسـتة الجاكـت الجلـدي طلبًـا للـدفء فظهـرت بطنـه الضخمـة واضحـة، ونفـخ في كفيـه الضخمتـين ثـم تحـرك في سرعـة محـاولًا تفـادي الأمطـار الغزيـرة نحـو

مدخل البناية الذي كان ممتلئًا برجال الشرطة.. أفسح له الجميع الطريق فتحرك وهو يرفع يده بالتحية على من يقابله دون إكتراث.. كان عقله منشغلًا بتلك القضية التي ستكون محور اهتمام الرأي العام في الفترة القادمة، مازال صوت رئيس مباحث القاهرة يرن في أذنه حين سمعه يصرخ في المحمول:

- مفيش حاجة تشغلك عن الموضوع ده يا معتز، دي قضية رأي عام.. كلامي واضح؟!.

لم يستخدم المصعد الخشبي القديم، مارس عادته بصعود درجات السلم حتى يرى بنفسه كل مداخل ومخارج مسرح الجريمة.. وصل للدور الرابع، فرأى من خلال عينيه البنيتين باب شقة المجني عليها مفتوحًا على مصراعيه.. تجمع أمامه الكثيرين من أصحاب الفضول، يحاولون التلصص لرؤية ما يجري بالداخل.. قال بصوته الأجش في نبرة رسمية:

- يلا يا جماعة كل واحد يروح يشوف أشغاله، عاوزين نشوف شغلنا.

نظر الوقوف نحوه في بلاهة، ولم يتحرك أحدهم من مكانه.. فرسم على وجهه القمحي علامات الجدية والصرامة ثم صاح:

- الأُمنا فين؟!.. يلا يا رجاله، عاوزين نفض المولد ده.

تحرك عدد من أمناء الشرطة فور سماعهم لصيحته الأخيرة.. صرفوا الناس في أقل من نصف دقيقة مكنته من دخول الشقة بعد أن رمى ببصره سريعًا نحو بابها.. لم يجد أي أثر لكسر أو استعمال للعنف.. عدل بيده ترتيب شعره الأسود الذي أصابه شئ من البلل بسبب مياه الأمطار وهو يجيل بصره في أنحاء المكان..

كان أول ما لفت نظره تلك الفتاة العشرينية الشقراء، تجلس على أريكة فاخرة في أقصى يمين المدخل.. ترتدي من الملابس قدرًا يسيرًا لا يتناسب مع برودة الطقس على الإطلاق، لكنه أرجأ الإهتمام بأمرها لحين معاينته لموقع الحادث..

- معتز بيه، إحنا هنا يا باشا.

تحرك نحو غرفة النوم فور أن سمع نداء النقيب "عمرو الوقاد" بعد أن طبع في ذهنه المتقد صورة مطابقة بالضبط للمكان.. كانت ديكورات الشقة على طراز حديث، يبدو الأثاث الفخم كأنه جديدًا.. كل شئ في هذه الشقة يدل على الإسراف والبذخ الشديدين.. الأرضية من خشب الباركيه تغطيها قطع صغيرة من السجاد الفاخر.. الحوائط مغطاة بتلك الألوان التي تواكب أحدث صيحات

الموضـة.. معلـق عليهـا عـدد كبـير مـن البراويـز الخشـبية والنحاسـية الأنيقـة، تضـم بـين أركانهـا صـورًا للمجنـي عليهـا في أوضـاع متعـددة ومراحـل عمريـة مختلفـة.. حتـى الإضـاءة والتماثيـل الصغـيرة المتناثـرة في كل مـكان كانـت بـلا حسـاب..

عـلى الرغـم مـن ذلـك إلا أن هنـاك شـيئًا لم يجعـل "معتز" مسـتريحًا لهـذه الشـقة.. ربمـا كان ذوقهـا الفاقـع، أو لعلـه ذلـك الإحسـاس الظاهـر بافتقـاد صاحبتهـا لقيمـة الأشـياء.. فـكل شـئ، بالرغـم مـن قيمتـه الباهظـة، مكـدس وملقـى بطريقـة تفقـده قيمتـه..

دخـل مـن بـاب غرفـة النـوم فوجـد جمـع مـن رجـال نقطـة شرطـة الجزيـرة يتوسـطهم النقيـب "عمـرو"، سـمع أحدهـم يقـول متحـسرًا:

- مش حرام الجمال ده؟!.

رد عليه آخر في تعجب:

- ده مين إللي جاله قلب يعمل كده!!.

قاطعهما صوت ثالث يقول في غضب:

- أدي أخرة المشي البطال.

حياهـم بإشـارة سريعـة مـن يـده فتبادلـوا نظـرات الخجـل بينهـم ثـم سـاد الصمـت تمامًـا.. بـدأ "معتـز" عملـه

كـما إعتـاد بمسـح بـصري للمـكان.. كانـت الغرفـة شـديدة الإتسـاع، تبـدو عليهـا أمـارات الفخامـة والبـذخ تمامًـا كـما هـو حـال بهـو الشـقة.. لم يلحـظ أي آثـار عنـف أو تحطيـم لمحتويـات الغرفـة، زجاجـات العطـر الثمينـة بقيـت عـلى حالتهـا فـوق التسريحـة ذات المـرآة الضخمـة.. لمـح هاتـف محمـول أحـدث موديـل وجهـاز تابلـت حديـث موضوعـان عـلى نفـس التسريحـة.. شاشـة التلفـاز ذات السـبعة والأربعـين بوصـة سـليمة، معلقـة عـلى الحائـط الأيـسر للغرفـة بالضبـط في مقابلـة الفـراش..

هالـه الحجـم الكبـير لفراشـها النحـاسي الـذي يتوسـط الغرفـة الفسـيحة.. كان تصميـم الفـراش يوحـي بالعراقـة والقـدم، يبـدو أثريًـا كأنـه يعـود لأمـيرة مـن أمـيرات العـصر المملـوكي.. لـه أربـع قوائـم معدينـة غليظـة ترتفـع عـن أرض الغرفـة حتـى تـكاد تلامـس سـقفها.. يخـرج منهـا غلالـة مـن القـماش الأبيـض الشـفاف تنسـدل حـول الفـراش، تضفـي حولـه أجـواءًا أسـطورية تماثـل أجـواء عصـور الجـواري والحريـم..

إقـترب مـن الفـراش مزيحًـا بكفـه جـزء مـن تلـك الغلالـة البيضـاء الرقيقـة، صـدم بـصره بقعـة كبـيرة مـن الدمـاء تلـوث مـلاءة الفـراش البيضـاء.. كانـت كتلـة الدمـاء متجمعـة في

مـكان عنـد منتصـف الفـراش تمامًـا، يخـرج منهـا بعـد ذلـك جـزء أقـل كثافـة نحـو جانـب الفـراش الأيسـر مـما يـدل عـلى أن الجثـة تـم سـحبها في ذلـك الإتجـاه.. تحـرك حـول الفـراش متتبعًـا أثـار سـحب الجثـة..

تسـمر في مكانـه بعـد أن وجـد جثـة المجنـي عليهـا مسـجاة عـلى الأرض، عاريـة تمامًـا.. دنـا منهـا يفحصهـا فحصًـا ظاهريًـا فوجـد جسـدها متشـنجًا في وضـع عجيـب..

كان جسـدها مفـرودًا لآخـره بالكامـل، إرتفعـت المنطقـة مـن عنـد الخـصر قليـلًا عـن الأرض..تيبسـت ذراعاهـا أمـام صدرهـا بعـد أن إنثنـى سـاعداها قـدرًا يسـيرًا، كأنهـا كانـت تحـاول الإمسـاك بشـخص أمامهـا.. تخشـبت قدماهـا وهـما ممدودتـان إلى آخـر مداهـما، تقلصـت أصابـع قدميهـا.. رفـع رأسـه إلى الأعـلى قليـلًا فـرأى سـكين مطبـخ مغـروز لآخـره بـين فخذيهـا..

تراجـع معتـز للـوراء قليـلًا بعـد أن هالـه بشـاعة مـا رأى ثـم أخـرج علبـة سـجائره وأشـعل إحداهـا، أخـذ ينفـث دخانهـا في عصبيـة واضحـة.. عقـد حاجبيـه مفكـرًا ثـم سـأل:

- عمـرو، هـما لقـوا الجثـة هنـا؟!.. ولا في حـد حركهـا مـن مكانهـا؟!.

- لا يـا باشـا، محـدش لمـس حاجـة.. هـي القتيلـة كانـت عـلى الأرض في نفـس المـكان إللـي سـيادتك واقـف عنـده.

شرد "معتـز" بذهنـه فـترة يحـاول تصـور كيفيـة وقـوع الجريمـة ثـم عـض عـلى شـفته السـفلى كعادتـه حينـما يفكـر في معضلـة تسـتعصى عـلى فهمـه.. قـال أخـيرًا كأنـه يحـدث نفسـه بصـوت مرتفـع:

- يبقـى هـي اتقتلـت الأول عـلى السريـر، وبعديـن نقلهـا لـلأرض.

إقـترب مـن الجثـة ولمسـها بيـده فوجدهـا بـدأت تـبرد، لكنهـا لم تصـل بعـد إلى درجـة مـن البرودة تـدل عـلى أن القتـل قـد تـم منـذ مـدة طويلـة.. ولاحـظ تغير بيـاض بشرتهـا الثلجـي قليـلًا إلى لـون أكـثر شـحوبًا.. حانـت مـن عينـه نظـرة خاطفـة لموضـع السـكين المغـروز فيهـا فتأفـف في ضيـق ثـم إلتفـت نحـو "عمـرو" وسـأله في نفـاذ صـبر:

- هي النيابة فين؟!.

- في الطريـق ياباشـا، والطـب الشرعـي كـمان بلغـوا إنهـم في السـكة.

أطفـأ "معتـز" سـيجارته في باطـن حذائـه ثـم وضعهـا في جيـب سـترته الجلديـة، كان لا يريـد تغيـير أي شـئ في

مسرح الجريمة.. واقترب مجددًا من الجثة ثم جثى على ركبتيه، أخذ يتأمل ملامح وتعبيرات وجهها الذي كان به أثر لبعض الكدمات والخدوش.. كان يعلم بحكم خبرته الطويلة أن عيني القتيل قد تدلانه على القاتل، لكنه شاهد عينين جامدتين.. فقط كانت بهما نظرة تعبر عن هلع رهيب، تكاد تنطق بألم فظيع.. قام واقفًا بعد أن أخذ عقله يعمل في سرعة بالغة، أزاح بيده جزء من تلك الغلالة البيضاء التي تغطي الفراش.. أخذ يتفحصه مجددًا ثم قال مخاطبًا النقيب "عمرو":

- مين إللي إكتشف الحادثة؟!

- البواب يا باشا، وإحنا متحفظين عليه في المطبخ دلوقتي.....

صمت "عمرو" لبرهة ثم تنحنح قائلًا:

- أصل الصراحة قلت مايصحش أخليه واقف هنا يتفرج على القتيلة بالمنظر ده.

رمقه "معتز" بنظرة جامدة ثم عاد ينظر نحو الفراش، لفت نظره لوحة زيتية ضخمة معلقة على الجدار فوق الفراش تمامًا.. كانت لوحة مرسومة للمجني عليها بدقة واحترافية شديدة، تصورها بالحجم الطبيعي عارية تمامًا..

تنظر لمن يراها نظرة تحد تبدو واضحة في ذلك البريق الذي تومض به عينيها الزرقاوتين.. عقد حاجبيه مفكرًا في عمق ثم عاد يتفحص الجثة من جديد، تأفف في غضب ثم قال مخاطبًا "عمرو":

- فين البواب ده خلينا نشوف إيه قصته؟.

لم يرد "عمرو" على الفور مما دفعه للنظر نحوه في نفاذ صبر إلا أنه وجده مترددًا قبل أن يقول بصوت مرتبك:

- لسه يا باشا سيادتك..

لم يمهله "معتز" فقاطعه في حدة:

- لسه إيه تاني يا عمرو؟!.

- لسه سيادتك ماشفتش الجثة التانية.

***

كانت السماء غائمة تضفي سحبها الكثيفة لونًا رماديًا قاتمًا على الأجواء.. جفت أوراق الأشجار تمامًا واصفرت، بدأت في التساقط بكثافة كأنها المطر حين هبت تلك الرياح التي تحمل غبارًا كثيفًا.. باتت الرؤية شديدة

الصعوبة وتداخلت كل الأصوات هادرة في حيز المكان مع ازدياد صفير الريح..

وقف "أكرم" يتلفت حوله في قلق وذعر، كان لا يعلم ما الذي أتى به إلى هذا المكان المخيف.. من بعيد سمع صوتًا مألوفًا يصرخ باسمه في رجاء:

"أكرم.. أكرم"..

اقترب من مصدر الصوت في صعوبة، كان يقاوم شدة الريح المعاكسة لاتجاه حركته.. بعد عناء شديد وصل للمكان الذي ظنه مصدر الصوت، لكنه لم يجد أحدًا.. سمع الصوت يصدر من جديد.. التفت خلفه بسرعة..

كانت أمه تنظر له برجاء من خلف عينيها الدامعتين، تمد يديها المعروقتين نحوه تطلب منه العون والمساعدة.. هم بالإمساك بيدها لكن صوتًا صرخ فيه بقوة، جعله يتلفت نحوه في فزع.. كان أبوه يوجه له نظرات حازمة، ينهاه عن مساعدة أمه.. لم يكترث لنظراته الصارمة والتفت نحو أمه، لكنه وجد الرياح العاتية تسحبها بعيدًا عنه حتى اختفت..

كاد أن يعدو خلفها لكنه رأى على مقربة منه طفلة صغيرة مستلقية على ظهرها، تحرك أطرافها في سعادة

غامرة.. تثبت نظرها في اتجاه شخص خفي، تصدر منها كل فترة ضحكة صافية تتحرك لها مشاعر قلبه.. تطوف من حولها فراشات كثيرة، مختلفة ألوانها.. ومع طوافها كانت الرياح تسكن، والشمس تسطع في المكان.. اقترب منها وهو يقول بصوت خنقته العبرات:

"فريدة"..

لكنه تسمر في مكانه فجأة حين تحولت تلك الفراشات إلى سيدات لهن أشكال متباينة، فقط كان ما يجمعهن هو تقاربهن في العمر.. كلهن سيدات أربعينيات.. لا يستر أجسادهن سوى ذلك القميص الأسود الفاضح، المنقوش على صدره رسم الفراشة..

كانت نظراتهن تحمل عدوانية مخيفة إقشعر لها بدنه.. لكنه تحامل على نفسه واقترب من "فريدة" بعد أن أحس بالخوف عليها.. رمقته النساء بغضب وغيظ، لكنه استمر في الإقتراب من مكانهن حتى كاد أن يمسك بابنته.. فجأة.. صرخت النساء فيه بقوة فسقط على ظهره وهو يشهق في قوة..

انتفض في فراشه مستيقظًا، يشله إحساس بدنو كارثة محققة.. بقي جامدًا يرمش بعينيه في ظلام الغرفة، الذي بدأ يتبدد قليلًا تحت وطأة ضوء أشعة الشمس.. تلفت

حولـه باحثًـا عـن هـؤلاء النسـاء، لكنـه لم يجـد لهـن أثـرًا.. نظـر نحـو "ليـلى"، فوجدهـا تغـط في سـبات عميـق بعـد أن أولتـه ظهرهـا كعادتهـا..

أخيرًا مد يده نحو هاتفه المحمول ثم نظر في شاشته..

"السادسـة صباحًـا!!".. حـدث نفسـه ثـم قـام مـن فراشـه متأففًـا، وهـو يلعـن ذلـك النـوم المتقطـع وتلـك الكوابيـس الملعونـة..

وقـف في منتصـف الغرفـة، لا يعـرف مـا الـذي يمكـن فعلـه في هـذا التوقيـت المبكـر.. لم يجـد أمامـه سـوى العبـث بهاتفـه المحمـول برغـم إقتناعـه بأنـه أصبـح مدمنًـا لشـبكات التواصل الملعونـة.. كان كثـيرًا مـا يتخيـل عنكبوتهـا المغطـى جسـده كلـه بزغـب كثيـف يوشـك أن يلتهمـه بعـد أن كبلـه بخيوطـه الوهنـة.. هـم بـترك المحمـول والعـودة للنـوم بعـد أن أصيـب بالقـرف لمجـرد ذكـر سـيرة العنكبـوت، الـذي كان يأنـف منـه كثـيرًا.. إلا أن خـبرًا ظهـر تحـت عنـوان (عاجـل) أثـار فضولـه، جعلـه يؤجـل نومـه قليـلًا.. ضغـط بابهامـه عـلى رابـط الخـبر، وهـو يسـخر مـن فضولـه.. لكنـه فغـر فـاه، وتجمـد في مكانـه حـين قـرأ مـا كان مكتوبًـا:

"مقتل الفنانة صفاء عبدالحميد في ظروف غامضة"..

أصابـه الذعـر والإرتبـاك، اشـتعلت التسـاؤلات في رأسـه.. "متـى ماتـت؟!".. هـز رأسـه في عنـف وهـو يقـول محدثًـا نفسـه:

"من قتلها؟!"..

نظر لشاشة المحمول غير مصدق وهو يغمغم بصوت مخنوق:

"لماذا؟!"..

اسـتجمع شـتات نفسـه بعـد فـترة لم يحصهـا، عقـد عزمـه ثـم طلـب رقـمًا كان لا يرغـب في الإتصـال بـه أبـدًا، جـاءه صـوت صاحبـه وقـد غلبـه النعـاس عـلى الجانـب الآخـر فقـال مـن فـوره:

- أيـوه يـا هشـام أنـا أكـرم.. عـاوز أقابلـك النهـاردة ضروري في نفـس المـكان.

جاءه صوت هشام يقول:

- لأ خلينا المرة دي في العيادة.

قال أكرم وهو يجز على أسنانه:

- خـلاص هاجيلـك العيـادة النهـاردة السـاعة ٩، بعـد لمـا تخلـص مواعيـدك.

***

... اليوم الثاني ...

حين تكون على حافة الجنون..
يدفعك ماضيك للسقوط ببطء شديد..
تخلص منه قبل أن تلتقمك الهاوية..

(٥)

تجاوزت الساعة العاشرة صباحًا بقليل حين أوقف "أكرم" سيارته أسفل العمارة التي توجد بها عيادته، نزل منها متأففًا وهو يستعرض في ذهنه ما مر به منذ أن أنهى مكالمته مع "هشام وهدان".. كان قد توجه بعدها إلى المركز الرياضي، لأول مرة منذ فترة طويلة، بعد أن فارق النوم عينيه تمامًا منذ علمه بمقتل "صفاء".. قرر ممارسة بعض الرياضة لعلها تساعد على تصفية ذهنه في تلك الأيام العصيبة التي ما عاد يسمع فيها سوى الأخبار السيئة..

حين دخل إلى المركز الرياضي كان يشعر أن شيئًا بداخله قد تغير، لم يعد يشعر بتلك الجاذبية والحضور الطاغي اللذان كانا يميزان شخصيته حين يدخل إلى أي مكان وخصوصًا هذا المركز.. حدث نفسه في ضيق مغمغمًا:

"يبدو أن صفاء قد رحلت ومعها رحل كل شئ"..

لم يطل مكثه بالمركز أكثر من نصف ساعة ثم غادره على عجل دون أن يحدد له وجهة.. قاد سيارته لفترة دون هدف ثم قرر حين إعتراه السأم التوجه لعيادته، وقضاء اليوم بها حتى يأتي موعده مع "هشام".. فالبقاء وحده أفضل في كل الأحوال من المكوث مع "ليلى" بحالاتها الغريبة التي لم يعد يجد لها مبررًا..

لم يجد عم "صلاح" جالسًا أمام العمارة فصعد السلم سريعًا ودفع بيده باب العيادة، كانت ماتزال مضاءة منذ لقاءه بالأمس مع "صفاء".. شعر بالحزن على نهايتها المأساوية، لكن حزنه لم يزد على أن هز رأسه في أسى ثم ترحم عليها.. توجه إلى غرفة مكتبه وألقى بجسده منهكًا على مقعده، وتشاغل عقله بالتفكير في الدافع من وراء قتل إنسانة رائعة مثل "صفاء"..

توقف عقله المجهد عن التفكير فور أن بدأ القلق يفرد أجنحته على سماء نفسه الغائمة، ما أقلقه حقًا هو وجود قميصها في دولاب ملابسه، وفشله في معرفة كيف جاء القميص إلى دولابه من الأساس؟!..

قطع حبل أفكاره رنين هاتفه المحمول، لكنه لم يعره اهتمامًا وبقي يشحذ ذهنه محاولًا تذكر ما جرى مع "صفاء" ليلة البارحة لعله يتذكر كيف جاء قميصها

لدولابه.. قاطعه رنين المحمول مجددًا، تأفف في ضيق وهو ينظر لشاشته.. علت وجهه إبتسامة عريضة حين رأى اسم المتصل.. أو المتصلة.. كانت "إيمي"..

لم يطل ترددده فأجاب من فوره بصوت حاول أن يبدو عليه المرح:

- إيه إللي فكرك بيا يا إيمو؟!.

علا صوته بضحكة مفتعلة حين سمع الرد على الطرف الآخر ثم قال بنبرة حاول أن تكون هادئة:

- خلاص يا ستي، أنا مستنيكي.

أنهى مكالمته ثم فتح درج مكتبه الأيمن العلوي وأخذ يعبث بمحتوياته حتى أمسك ملفًا أزرق اللون مكتوب عليه بخط واضح (ملف السيدة/ إيمان الشهاوي).. فتحه أمامه ثم بدأ يقلب في أوراقه، وذكريات تعارفه عليها تلح على عقله..

كان ذلك منذ ثلاثة أعوام تقريبًا حين دق باب غرفة مكتبه، وأخبره مساعده أن هناك سيدة أنيقة حضرت دون سابق موعد.. نظر "أكرم" في ساعة يده فوجدها قد تجاوزت التاسعة مساءًا، كان قد إنتهى من فحص آخر حالة عنده هذا المساء وبدأ يستعد لمغادرة العيادة

والذهاب لموعد "صفاء".. رمى "أكرم" مساعده بنظرة عتاب، كان قد وضع نظامًا صارمًا لعمله بالعيادة ودرب عليه المساعد كثيرًا.. يتلقى المساعد الإتصالات من المرضى لتحديد موعد ثم يعد بها كشفًا، يعرضه على "أكرم" ليرتب مواعيده التي تكون بعد عشرة أيام على الأقل.. فيما عدا الحالات الطارئة بطبيعة الأحوال.. والطارئة هنا وفقًا لنظام "أكرم" الدقيق لا تقتصر فقط على الحالات التي تشكل خطورة حياة المريض.. تنحنح المساعد ثم قال وهو ينظر بلؤم نحو "أكرم":

- حالة طارئة يا دكتور.

تردد "أكرم" قليلًا، لكنه قرر إجراء المقابلة وإنهائها في أسرع وقت حتى لا يتأخر على "صفاء".. أومأ برأسه للمساعد ثم أشار له بيده سامحًا بدخولها.. مرت لحظات ثم سمع صوت طرقات مهذبة على الباب، ودخلت إلى الغرفة..

كانت سيدة في أوائل الأربعينات، جميلة.. يضفي عليها سمار بشرتها البرونزية جاذبية لافتة.. تصبغ شفتيها المكتنزتين، الراقدة إحداهما فوق الأخرى في دعة واستكانة، بلون وردي هادئ.. شعرها الأسود اللامع ينسدل حتى كتفيها، مصفف بطريقة تدل على إتزان

شخصيتها.. جسدها ملفوف متناسق بشكل بديع، حركتها رشيقة.. بشرتها مشدودة وعلامات الصحة تبدو واضحة على صفحة وجهها، لم تؤثر تلك الهالات البسيطة أسفل عينيها على سحر وجاذبية وجهها.. عيناها بدتا واسعتين أسفل حاجبين عريضين محددين بدقة كأنهما مظلتان واقيتان تحميان بريق عينيها اللافت من وهج الشمس ومن الحسد، يطل لون عسلهما من خلال بياض حليبي ناصع.. تضع على وجهها إبتسامة خفيفة، لكنها كافية لإبراز جمال أسنانها الناصعة.. نزل بنظره إلى الأسفل فرأى ساقيها واضحين من تحت تنورتها التي بالكاد تصل إلى ما فوق ركبتيها.. و..

- متأسفة جدًا يا دكتور إني جيت من غير ميعاد.

إنتبه "أكرم" من شروده على بحة صوتها التي كان لها مفعول السحر في أذنيه.. تنحنح في إرتباك حين مدت يدها تصافحه فقام على الفور من خلف مكتبه وتوجه نحوها يلتقط يدها الرقيقة بكلتا يديه ثم قال:

- إتفضلي يافندم.

دعاها إلى الجلوس على المقعد الوثير الموضوع أمام المكتب ثم عاود الجلوس خلف مكتبه متظاهرًا بالهدوء، حرص على ألا تبدو عليه علامات الإعجاب بجاذبيتها..

قبل أن يبدأ في أسئلته المعتادة بادرت هي قائلة بنفس الصوت المبحوح الذي سحر أذناه:

- يا ترى ممكن أدخن؟!.

أومأ لها برأسه وهو يقرب لها مطفأة سجائر زجاجية، كانت موضوعة بالقرب منه على سطح المكتب.. أشعلت سيجارتها ثم نفثت دخانها في توتر وقالت:

- أنا مش بنام يا دكتور، بقالي فترة على الحالة دي.. مش عارفه إيه الحل؟!.. أنا خلاص مش قادرة، تعبت.

أمسك بقلمه يدون بعض الملاحظات بالمفكرة أمامه، ثم رفع رأسه نحوها وسألها في جدية:

- والحالة دي بقالها كتير عند حضرتك؟.

"بقولك تعبانة، مش قادرة.. إنت مش دكتور ولا إيه؟!"..

إنتفض في مكانه وأفاق من شروده عقب سماعه للعبارة الأخيرة، رن صوتها المبحوح في غرفته بعد أن أطلقت ضحكة عالية في ميوعة.. رفع رأسه نحوها فوجدها تخلع معطفها الأنيق وحذائها، وتلقي بهما بلا إكتراث على أرضية الغرفة.. إقتربت من مكتبه حتى وقفت أمامه،

إستندت بكفيها على حافته ثم إنحنت قليلًا بصدرها إلى الأمام مما منحها مظهرًا مثيرًا.. خاطبها بنبرة ذات مغزى، عقب فراغه من تفحص تلك المساحة التي يسمح بها قميصها المفتوحة أزراره تقريبًا وتكشف عن نهدين كأنهما توأمي حجل نائمين على صدرها:

- بقالنا كتير مااتقابلناش يا إيمو.

تحركت "إيمي" في إتجاهه تتمايل في ميوعة، تحاول إبراز أكبر قدر ممكن من مفاتنها وأنوثتها.. فملأت رائحة بخورها النسائي المكان، وأدفأت حرارة ناره برودة الغرفة.. رمته بنظرة ناعسة بعد أن وضعت يمينها في خصرها.. مبرزة تلك المنطقة الضيقة التي تفصل بين نصفها العلوي النافر في شموخ، ونصفها السفلي البديع في إستدارته.. قالت تدلله بحروف ممطوطة وهي تفتح بيسراها زرًا إضافيًا من أزرار قميصها الأبيض الخفيف، في إشارة لها دلالة خاصة:

- في حاجات يا كيمو لازم نبعد عنها شوية، علشان نشتاق لها.

أنهت عبارتها ثم رفعت ساقها، ووضعت قدمها فوق فخذه في جموح إعتاده منها.. مدت يدها ترفع عن ساقها تنورتها شيئًا فشيئًا.. ثم أسبلت رموشها الطويلة في دلال،

وانحنت تقترب من وجهه.. إقترب وجهها من وجهه حتى لفحته حرارة جسدها.. أغمضت "إيمي" عينيها وندت عنها تنهيدة حارة، منتظرة منه أن يقبلها.. لكنه تصنع الجدية، وقال في رصانة عقب أن وضع كفه على شفتيها:

- ضيعنا وقت كتير، كفاية لحد كده.

إتسعت عيناها في ذهول، لا تصدق إعراضه عنها.. لكنها لم تلبث أن ضحكت في غنج بعد إرتفع جسدها عن الأرض فجأة، ووجدت نفسها بين ذراعيه القويتين.. غامت نظراتها بين أحضانه، وسمعته يهمس من بين إبتسامته الرائقة:

- خلص الكلام لحد هنا يا إيمي.

***

لم ينل المقدم "معتز الشامي" قسطًا من النوم منذ حادثة الأمس، ولم يجد للراحة سبيلًا.. ألقى بجسده الضخم على كرسيه خلف المكتب الخشبي، الذي يتوسط غرفته بمبنى قسم شرطة قصر النيل.. كان الإرهاق قد بلغ منه منتهاه، لكنه كان يقاوم ذلك الإحساس في صلابة على الرغم من تجاوز عقارب الساعة للثانية عشر ظهرًا.. شعر

عقله بالتحدي لتلك الجريمة الغامضة، التي لم يتمكن من فك طلاسمها حتى الآن..

رشف فنجان القهوة الخامس أمامه، وأشعل سيجارة.. وضعها أمامه في المطفأة دون أن يسحب منها دخانًا، سرح ذهنه في قضية مقتل "صفاء".. يبحث عن الدافع وراء قتلها، كان يعلم بحكم خبرته أنه إذا علم الدافع توصل إلى الجاني..

لكن الوضع في حالة "صفاء" كان مختلفًا.. فتلك الجرائم تكون غالبًا بدافع السرقة، ومثل هؤلاء الفنانات يخدعن عامة الناس بذلك النمط المترف من الحياة.. يظن الناس أنهن يمتلكن في بيوتهن الملايين أو كأن بيوتهن هي مغارة علي بابا، يحصل من يفتح بابها على الكنوز الثمينة..

إلا أن خبرته الطويلة في المباحث تخبره بأن هذه الجريمة بالتحديد ورائها سر غامض.. فالظاهر من طريقة القتل أن الدافع وراء إرتكابها كان عاطفيًا، لكن مؤكد أن العاطفة لم تكن وحدها الدافع بل كانت مقترنة بدافع جنسي وإلا فما المبرر لطعنها بين فخذيها!!.. كما أن تلك الجثة المجهولة التي وجدوها عارية في حمام غرفة نوم "صفاء" تكاد تشل تفكيره تمامًا.. لا يظهر عليها أثر أي

مقاومة على الإطلاق، فقط تلك العلامات الزرقاء على عنقها من أثر يد القاتل حين خنقها..

"لماذا تقتل سيدتان ليس بينهما رابط في نفس المكان؟، ولم تترك جثتيهما عاريتين؟!"..

أعياه الفكر وأضنته الحيرة بعد أن فشل في الإجابة على هذا السؤال.. فهز رأسه في ضيق، أمسك بسيجارته بعد أن أوشكت على الإنتهاء ثم سحب منها نفسًا عميقًا حتى كادت أن تحرق شفتاه.. أطفئها بغضب، وهو ينفث دخانها في ضيق وتأفف.. أشعل سيجارة أخرى ثم أمسك بملف التحريات الأولية الذي استلمه منذ قليل، وبدأ يقرأ مادون فيه في إنتباه شديد:

"صفية جابر عبدالحميد"، وإسم الشهرة "صفاء عبدالحميد".. أنثى، مسلمة، مطلقة، مواليد الجيزة سنة ١٩٦٦.. نشأت في أسرة ميسورة الحال، كون والدها ثروة من العمل بمجال المقاولات في سبعينات وثمانينات القرن الماضي وقت أن كانت تلك الأعمال مزدهرة.. مكنته تلك الثروة المعقولة من الزواج بوالدة صفاء والتي كانت تنحدر من أصول أسرة عريقة، لكن ساءت حالتهم المادية بعد أن نالت من أملاكهم قرارات التأميم في ستينات القرن ذاته.. تلقت صفاء تعليمًا راقيًا في مدارس أجنبية

فأصبحت تتقن الإنجليزية والفرنسية.. إنفصل أبواها في سن مبكرة بعد أن تأثرت ثروة والدها نتيجة إنهيار بعض العقارات التي بناها، ولم تتحمل والدتها أحواله المتعثرة فتم الطلاق.. بقيت مع أمها في شقتها بالزمالك، لم يمض وقت طويل حتى كانت الأم تتزوج من رجل سئ السمعة.. إشتهر عنه أنه كان مولعًا بمطاردة سيدات الطبقة الراقية من المطلقات والأرامل، يمنحهن الحب المفقود ويستحوذ على ما بقي من ثرواتهن.. كان جمال صفاء هو سلاحها الوحيد وطريقها الأمثل للنجاح، فعن طريقه تم إختيارها للتمثيل في فريق مسرح المدرسة.. وعن طريقه أيضًا تعرفت على أحد شباب المخرجين الذي أسند لها دورًا صغيرًا في فيلم من أفلام الصيف.. وبسببه كذلك حظيت باهتمام ورعاية "مدحت حمودة" مذيع النشرة الفرنسية، الذي بهره جمالها وأعجبه إجادتها للفرنسية فعرض عليها تأمين مستقبلها الفني وحمايتها بشبكة علاقاته..

قطع إسترساله في القراءة رنين هاتفه المحمول، رد على الفور حين رأى على الشاشة وميضًا شديدًا باسم رئيس مباحث القاهرة.. لم يتمكن من الرد فقد سبقته موجة عاتية من الصراخ والصياح على الجانب الآخر، لم يتبين منها سوى كلمات متقطعة..

"الكلام ده ماينفعش"..

"لسه مش عارفين تقبضوا على القاتل!!"..

"أقول للقيادات إيه؟"..

"ده اسمه تهريج يا حضرة المقدم، ابعتلي تقرير فورًا بكل حاجة وصلتلها"..

ألقى بهاتفه في حدة على المكتب، وإحمرت عيناه من الغضب بعد أن أُغلق الخط في وجهه ولم ينل فرصة واحدة لتبرير موقفه.. لعن في قرارة نفسه اليوم الذي التحق فيه بكلية الشرطة، واليوم الذي تم ترشيحه فيه للعمل بالمباحث.. ذلك العمل الذي كان سببًا رئيسيًا في هدم أركان أسرته الصغيرة..

أمسك هاتفه مرة أخرى، وضغط على إسم "عمرو الوقاد".. ما أن سمع صوته على الجانب الآخر حتى بادره صائحًا:

- إنت فين يا عمرو؟!، الدنيا مقلوبة في المديرية وإنت لسه ماوصلتش لحاجة؟

- يا باشا إحنا بعتنا لسيادتك التحريات الأولية وحاليًا إحنا....

لم يمهله "معتز"، وقاطعه في حدة:

- تحريات إيه وكلام فارغ إيه؟!، مين صاحبة الجثة التانية يا سيادة النقيب؟!.. قدامك ساعتين بالكتير تكون عرفت على الأقل إسمها.

- أوامرك يا باشا.

أغلق الخط وهو يكاد ينفجر من الغيظ.. طلب فنجانًا سادسًا من القهوة، بدأ يتمالك نفسه حين رشف منه القليل.. هدأت ثورته بعض الشئ، فجلس يكمل ما بدأه من قراءة تقرير التحريات:

وافقت "صفاء" على الزواج من "مدحت حمودة" بالرغم من أنه يكبرها بعشرين عامًا، أمن لها هذا الزواج خطوات راسخة في الوسط الفني.. انتقلت معه لعالم الشهرة والأضواء المبهرة، أصبحت علاقاتها أكثر تشعبًا وتأثيرًا مما ضمن لها مكانة مميزة وسط بنات جيلها من الفنانات.. بل كانت أكثر تميزًا عنهم لجمالها وموهبتها الكبيرة.. سرعان ما تقدمت حتى أصبحت من نجوم الشباك اللاتي يحصلن على أعلى الأجور، ثم تحولت لتصبح نجمة الشباك الأولى التي تحدد طاقم العمل بأكمله.. سارت حياتها على وتيرة واحدة تماثل ما يحدث مع أي نجمة سيطرت على القمة، مضت حياتها الزوجية طبيعية حتى إكتشفت ما كان يخفيه عنها زوجها..

مـن المعـروف عـن "مدحـت حمـودة" ميولـه الجنسـية الشـاذة لكـن مـن الواضـح أنـه نجـح في إخفـاء طبيعتـه المزدوجـة عـن "صفـاء".. حتـى ضبطتـه في فـراش الزوجيـة، يمـارس معـه أحـد الشـباب أفعـالًا أقـل مـا توصـف بـه أنهـا شـذوذًا جنسـيًا.. دمرتهـا تلـك الصدمـة تمامًـا فطلقـت منـه في سريـة تامـة وهـدوء شـديد حفاظًـا عـلى مسـتقبلها الفنـي.. تنازلـت عـن كل حقوقهـا الماليـة، وانـزوت في شـقة أمهـا بالزمالـك بعيـدًا عـن الأضـواء.. ماتـت أمهـا بعـد فـترة قصـيرة، أصبحـت "صفـاء" وحيـدة تمامًـا في مواجهـة معركـة المنافسـة الشرسـة للحفـاظ عـلى قمـة نجوميتهـا.. إضطـرت لفتـح منزلها للسـهرات حتـى تجـد مـن تؤنـس بـه وحدتهـا.. أهملـت عملهـا وفنهـا وانغمسـت في حفلاتهـا وحياتهـا الإجتماعيـة..

شـيئًا فشـيئًا بـدأ نجمهـا الفنـي في الأفـول، وتحولـت قمـة نجوميتها إلى هاوية سـحيقة تسـحبها لأسـفل سـافلين.. شـعرت في قـرارة نفسـها بمـا يحـدث، لكـن غرورهـا وثقتهـا المفرطـة في نفسـها منعاهـا مـن الإعـتراف بـه.. بـدأت معاملتهـا تختلـف مـع كل مـن حولهـا، أصبحـت تشـك في الجميـع.. شـعرت أن القمـة تهتـز مـن تحـت قدميهـا فـزادت عصبيتهـا وسـاءت أخلاقهـا.. خاصـة بعـد عـزوف شركات الإنتـاج عنهـا، بعدمـا كانـت تتهافـت عليهـا وتتحمـل في رضـا أجرهـا وشروطهـا

المغـالى فيهـما.. وتوقـف المخرجـون عـن ملاحقتهـا والإتصـال بهـا لتحديـد موعـد.. حتـى الصحـف باتـت شـحيحة في نـشر صورهـا وأخبارهـا..

تقـول المصـادر أنهـا كانـت شـديدة الثقـة في أنهـا لم تفقـد شـيئًا مـن وهـج نجوميتهـا ولا بريـق جمالهـا، لـذا إزداد إهتمامهـا بمظهرهـا وحفلاتهـا الصاخبـة.. بالغـت في الـتردد عـلى مراكـز التجميـل والمراكـز الرياضيـة الفاخـرة، لكـن أيًـا مـن ذلـك لم يمنـع نهايتهـا كنجمـة كان الجميـع يتوقـع أن تكـون ملكـة الفـن بـلا منـازع في العـصر الحـالي.. مـع إنهيـار نجوميتهـا انهـارت حياتهـا ومعهـا تحطمـت نفسـيتها، أصيبـت باحبـاط شـديد تحـول بمـرور الوقـت لاكتئـاب حـاد فـترددت عـلى إحـدى المصحـات النفسـية الشـهيرة لفـترة ثـم خرجـت تعـاود حياتهـا.. لهـا العديـد مـن العلاقـات العاطفيـة الغـير مكتملـة.. لا يوجـد لديهـا خـدم مقيمـين بالشـقة.. لا يـتردد عليهـا أحـد بصـورة منتظمـة في الفـترة الأخـيرة سـوى "داليـا" ابنـة أختهـا..

طـوى "معتـز" أوراق الملـف أمامـه في ضيـق، وأشـعل سـيجارة جديـدة بعـد أن إزدادت الأمـور تعقيـدًا أمامـه.. أخـرج ورقـة بيضـاء وبـدأ يكتـب فيهـا:

"مدحت حمودة - طليق شاذ".. "داليا - إبنة أخت"..
"بواب العمارة".. "المصحة النفسية"..

أغمض عيناه بقوة وهو يزفر في ضيق بعد أن إتسعت دائرة المشتبه فيهم أمامه، لكن رنين هاتفه المحمول أنقذه من دوامات الحيرة حين سمع صوت "عمرو" يقول في لهفة:

- إيمان الشهاوي يا باشا.

صمت "معتز" لوهلة ثم قال متسائلًا:

- مين دي كمان؟!

جاءه صوت "عمرو" عبر المحمول قائلًا:

- دي صاحبة الجثة التانية سعادتك.

***

(٦)

جلس الدكتور "هشام وهدان" مستندًا بظهره على مقعده الوثير خلف مكتبه الخشبي الفخم في غرفته الخاصة بعيادته الأنيقة الواقعة بمنطقة المقطم.. ينتظر لقاء غريمه القديم "أكرم رشدي"، مفكرًا فيما حدث من تغيرات جذرية في حياته منذ آخر لقاء جمع بينه وبين "أكرم"..

ابتسم في ثقة حين حانت منه نظرة خاطفة نحو شهادات التقدير والجوائز العلمية التي إمتلأت بها جدران ومكتبة الغرفة.. تذكر مشوار طويل من الكفاح المرير، قاسى خلاله حتى وصل إلى ما وصل إليه..

مكانة رفيعة صنعت منه واحدًا من أشهر الأطباء النفسيين، وجعلت منتجعه العلاجي يتنافس مشاهير

المجتمع على حجز موعد لقضاء وقت فيه.. تذكر تلك الدورات التي حصل عليها في أوروبا، وكيف كان منبهرًا بمدى تقدمهم حين سافر طلبًا للعلم..

تكونت أمام ناظريه صورة مصحته العلاجية وقت أن كانت مجرد قطعة أرض صحراوية على طريق مصر الأسكندرية الصحراوي.. ومض في عقله شكلها الآن بعد أن تحولت لمنتجع علاجي، يضاهي الفنادق ذات الخمسة نجوم..

هز رأسه في قوة طاردًا عنها تلك الأفكار التي سببها مجرد التفكير في "أكرم".. لا يعلم لماذا يشعر دومًا بالدونية أمامه.. حقًا كان "أكرم" شابًا مدللًا غنيًا وقت الجامعة، لكن الوضع الآن بات مختلفًا..

أخذ عقله العملي يفكر في كل الإحتمالات التي من الممكن أن يكون عليها هذا اللقاء.. كان يعلم أن "أكرم" ابتلع الطعم منذ أن سمع صوته مهزوزًا وقت أن حادثه هاتفيًا يطلب لقاؤه، لكنه أيضًا كان مدركًا لصعوبة إكتساب ثقة مريض مثل "أكرم"..

فالثقة بين المريض والطبيب هي أساس العلاج النفسي.. هي الباب الذي قد يتمكن من خلال عبوره أن يقنع "أكرم" بالبوح بمكنونات نفسه، ومن خلال هذا البوح

يصبح قادرًا على تحليل حالته.. لكن "أكرم" كان طبيبًا أيضًا، وهو ما يزيد الأمر صعوبة.. لكن تلك الصعوبة كانت هي ما تثيره.. كان يرغب في كشف عورته النفسية فتنمحي معها شخصيته أمامه، وتنكسر غطرسته التي كثيرًا ما عانى منها فيما مضى..

كان يعلم بحكم خبرته أن المريض النفسي في العموم يكون له وعيان، ظاهر وباطن.. الوعي الظاهر يكون خاصًا بالحاضر، يجر من خلفه آخر باطنًا يكون متعلقًا بماضي المريض.. ويستمر الوعي الظاهر في عملية الجر أو السحب هذه كأنه يستخدم حبلًا وهميًا، لكن لكل حبل مهما بلغ طوله نهاية.. فعند نقطة معينة يبلغ هذا الحبل الوهمي منتهاه، حينئذ تبدأ عملية عكسية.. عملية جذب الوعي الباطن للوعي الظاهر مع محاولة الأخير للإستمرار في طريقه ساحبًا خلفه الباطن.. في هذه النقطة تحديدًا يبدأ الصراع بين الظاهر والباطن، عندها يفقد عقل المريض قدرته على التمييز.. تبدأ أعراض المرض النفسي..

وحالة "أكرم" كما عرف من "ليلى" هي حالة من الهلاوس السمعية، وفقدان مؤقت في الذاكرة لبعض الحوادث الإنتقائية.. ولكي يتمكن من علاجها فلابد أن

يعرف النقطة التي وصل إليها وعي "أكرم"، أو الحادث الذي إعترض حياته فقلب موازينها.. عندها يواجهه به حتى يتمكن من إعادة توازنه النفسي.. هذا ما يتعين عليه الوصول إليه كطبيب..

لكنه يعرف أن الوصول لذلك مع مريض مثل "أكرم" ليس بالأمر الهين.. لأن الأخير بحكم خبرته كطبيب يستطيع أن يخدع نفسه جيدًا.. يبرر أفعاله وتصرفاته الغريبة تبريرًا يرضي عنه وعيه الظاهر، يتمكن به من إخفاء حقيقة مرضه على نفسه بل ويقنعها بأنه ليس مريضًا من الأساس.. ومادام المريض قادرًا على خداع نفسه فإنه بالضرورة سيكون أكثر قدرة على خداع طبيبه..

حالة صعبة ومعركة شرسة تلك التي ستكون بينه وبين "أكرم"، لذا فقد إختار أن يعتمد على أسلوب الصدمة كوسيلة للتغلب على شخصية "أكرم" وقهرها.. فتعمد أن يكون لقاؤهما في عيادته ليجعله يعترف بينه وبين نفسه بحاجته إليه، حتى يحطم غروره وغطرسته.. ثم إن "أكرم" سيكون أكثر إستسلامًا له في العيادة منه عندما يلقاه خارجها.

وبالرغم من هذا كله فحين جاء "أكرم" في موعده تمامًا كانت هناك هالة كبيرة من الثقة المفرطة بالنفس

تحيط به، بدا شديد الغرور مزهوًا بنفسه كالطاووس.. إبتسامته الصغيرة ترتسم على جانب فمه حتى ظن معها "هشام" أنه يسخر منه، ويتحداه..

غمغم "هشام" محدثًا نفسه في حنق:

"اللعنة عليك، كيف إستطعت في الفترة التي انقضت منذ حديثنا الهاتفي أن تستعيد سيطرتك على نفسك.. تؤهل نفسك لدخول العيادة بكامل قواك وطاقتك".

دخل "أكرم" غرفة "هشام" الفخمة صامتًا، يجيل بصره في المكان وتلك الشهادات العلمية الكثيرة المعلقة على الجدران تثير حنقه.. جلس دون إستئذان على المقعد الضخم المواجه لمكتب "هشام" الخشبي ثم قال محاولًا السيطرة على مجريات الأمور:

- الحقيقة أنا قررت أجيلك علشان أستعين بك في موضوع معين.. هو أنا كنت قررت إني أعالجه بنفسي طبعًا، لكن في الآخر شفت إن ممكن أستعين بشخص غيري..
- وأنا جاهز يا أكرم.

قالها "هشام" بوجه جامد لكن نبرات صوته المتحدية كشفت عن نواياه.. إتسعت إبتسامة "أكرم" حين علم أنه أصاب غريمة إصابة موفقة فقال بلهجة ساخرة:

- الموضوع بسيط يا سيدي، شوية هلاوس سمعية مش محتاجة إلا بس.....

قاطعه "هشام" في نبرة جامدة:

- إمتى بدأت الهلاوس دي؟.

رمقه "أكرم" في دهشة، لكنه قال متجاوزًا دهشته:

- من مدة طويلة، حوالي سنة.. لكنها زادت شوية في الأسبوعين الأخيرين.. أنا كنت شايف الموضوع عادي ممكن يخلص بشوية مهدئات لكن ليلى هي اللي أصرت إني لازم أشوف دكتور غيرنا.

مط "هشام" شفتيه ثم قال ببرود:

- إحتمال.

- إحتمال!!، ده اللي حصل فعلًا.. يعني ده واقع مش إحتمال.

رد "أكرم" في ضيق من لهجة "هشام" الباردة ومحاولته لعب دور الطبيب النفسي معه، لكن "هشام" رد له الضربة حين قال بنبرة جادة:

- التحليل النفسي مش ممكن يبقى واقع لأنه مجرد إستنتاج.. لكن الواقع هو نتيجة التحليل النفسي النهائية، إللي بتثبت صحة التحليل أو خطأه.

جز "أكرم" على أسنانه غيظًا ثم سكت تمامًا، كأنه تلقى درسًا لم يكن يحب أن يتلقاه.. تركه "هشام" صامتًا وتشاغل عنه بكتابة بعض الملاحظات على المفكرة أمامه.. بعد فترة طالت خرج صوت "أكرم" مبحوحًا حين كسر حاجز الصمت قائلًا:

- إيه مقترحاتك علشان نبدأ؟.

- كلمني عن نفسك؟!

قالها "هشام" دون أن يرفع عيناه عن المفكرة أمامه.. استعر الشك في قلب "أكرم" حين أحس بأن "هشام" يعد له فخًا فقال:

- أكلمك عن نفسي ولا أكلمك عن ليلى؟.

- الاتنين واحد، إنت لما تكلمني عن نفسك أكيد هتكلمني عنها.. مش كده ولا إيه يا دكتور؟!.

قالها "هشام" في سخرية واضحة، فضاقت حدقتا "أكرم" ثم قال غاضبًا:

- إنت فاكر إني مش فاهم إنت بتحاول تعمل إيه، أنا عارف كويس كل....

- تقدر تنطق إسمها؟!

باغته "هشام" مقاطعًا، بهت "أكرم" لسؤاله الغريب فقال متعجبًا:

- هي مين دي؟!

ركز "هشام" نظراته على عيني "أكرم" محاولًا فرض شخصيته عليه ثم قال في هدوء قاتل:

- بنتك يا أكرم، بنتك.

إرتعشت عين "أكرم" اليسرى رغمًا عنه واهتزت شفته السفلى في حركة لا إرادية، لكنه تمالك نفسه سريعًا وقال بصوت مبحوح بعد أن أخرج علبة سجائره:

- ممكن أدخن لو سمحت؟!.

رمقه "هشام" لفترة ثم قرر أن يحاول كسب ثقته فقال بهدوء:

- هو في الأصل ممنوع التدخين أثناء الجلسة، لكن لاعتبارات الصداقة القديمة يبقى مفيش ممنوع بالنسبة لك.

أشعل "أكرم" سيجارته ومضى ينفث دخانها في عصبية واضحة دون أن ينطق بكلمة واحدة، طال صمته حتى قطعه "هشام":

- مش ناوي تقولي اسمها؟!.

تلعثم "أكرم" حين حاول الكلام، لمجرد أنه حاول نطق اسمها فخرجت الحروف مبعثرة من فمه:

- فـ.. فر.. يدة.

قالها ثم سالت دموعه من عينيه دون شعور، بقي وجهه ثابتًا دون أدنى تعبير يوحي بما يعترك في داخله من مشاعر متباينة.. تفحص "هشام" وجهه لفترة ثم سأله:

- فاكر إيه اللي حصلها يا أكرم؟!.

- طبعًا.

أجاب "أكرم" في حدة ملحوظة، فهم منها "هشام" عدم رغبته في إستكمال الحديث حول هذا الموضوع لكنه قرر مواصلة إتباع أسلوب الصدمة فسأله:

- طيب فاكر هي ماتت إزاي؟!.

إزدرد "أكرم" لعابه بصعوبة وهو يقاوم إحساسًا طاغيًا ورغبة ملحة في البكاء ثم قال بصوت خافت:

- لأ، مش فاكر.

أومأ "هشام" برأسه ثم قال:

- ماشي، خلينا نغير الموضوع دلوقتي.. ممكن تحكي لي شوية عنك؟.

- عاوزني أحكيلك إيه بالضبط، إنت عارف عني كل حاجة تقريبًا من أيام الجامعة.

قالها "أكرم" وفي عينيه بريق يلمع بنظرات الشك.. عدل "هشام" من وضع نظارته الطبية ثم قال محاولًا كسب ثقته:

- أي حاجة يا أكرم، قول أي حاجة تريحك يمكن أقدر أساعدك.

زفر "أكرم" زفرة طويلة ثم أطفأ سيجارته في عصبية، تلفت حوله حتى وجد أريكة فقام متوجهًا نحوها ثم تمدد فوقها شابكًا يديه فوق بطنه.. إبتسم "هشام" في هدوء فقد كان في فعل "أكرم" هذا دليلًا دامغًا على أنه يعاني من خلل نفسي بالفعل.. أنه في حاجة إلى طبيب، في حاجة إلى البوح.. علم "هشام" أن هذا التحدي الظاهر في تصرفاته وحديثه لم يكن موجهًا له بل كان يتحدى نفسه..

أغمض "أكرم" عينيه كأنه يحاول التغلب على نفسه ثم خرج صوته ضعيفًا بطيئًا للغاية، كأنه يتحدث من

باطنه.. غابت عنه نبرته القوية، إختفت لهجته المتحدية الساخرة وبات كأنه مهمومًا حزينًا ينعي نفسه:

"لا دور لي في هذه الحياة سوى أن أتقبل ضرباتها بصدر رحب، أتحملها في صبر وألم حتى إن إنكفأت على وجههي من قوتها.. ثم أتظاهر بالقوة وأعود واقفًا من جديد لمواصلة طريقي.. حتى نجاحي وتفوقي ليس لي يد فيهما، فأنا لم أجد أمامي طريق آخر.. لم أكن أمتلك رفاهية الفشل.. يظن الناس من حولي أني قوي صلب، لا يشعرون بما أحس به من ألم.. لكن لا يهم.. فقد أعجبني ذلك الإحساس منهم، ونظرات الإعجاب تلك التي يوجهونها نحوي دومًا.."..

توقف "أكرم" عن مواصلة البوح وزفر زفرة طويلة، غرق في صمت طويل.. فتح عيناه وأخذ ينظر نحو "هشام" بعين ترجوه أن يجعله يتوقف لكن الأخير أدار مقعده بعيدًا عنه ونظر إلى الجهة المقابلة.. أغمض "أكرم" عينيه مجددًا وأكمل البوح:

"كان أبي ضابطًا في الجيش، لكنه لم يكن ضابطًا عاديًا كما سمعت من عمتي كثيرًا.. أخبرتني أنه كان يعمل في جهاز سيادي، مسئول عن العديد من الملفات الملتهبة الشائكة آنذاك.. تنقل بحكم عمله في محافظات كثيرة،

لم يكن يقيم معنا بصورة منتظمة.. كنت أنتظره عشرة أيام كل شهر، أحيانًا كانت غيبته تطول لكنه كان دائمًا ما يعود.. كان محافظًا صارمًا في حياته، يحافظ على العادات والتقاليد لا يقبل فيهما تهاون أبدًا.. فأصوله الريفية ووالده ضابط الجيش أيضًا كانا هما المكونان الرئيسيان في شخصيته.. أما أمي فقد كانت على النقيض تمامًا.. كانت من أسرة لها أصول أرستقراطية، والدها كان إقطاعيًا من الذين صادرت ثورة يوليو أموالهم وممتلكاتهم.. سمعت مرة عمتي تقول أن جدي لأمي قد وافق على تلك الزيجة طمعًا في أن يحمي جدي لأبي ما بقي من أملاكه.. كنت دائمًا ما أسمع عمتي تقول لأبي: "ماكانش ليك في الجواز من الناس دول أبدًا يا خويا".. لكنها كانت مخطئة.."..

توقف عن الحديث فجأة وقام واقفًا ثم قال في حدة:

- أظن كده كفاية النهاردة.

وخرج من الباب بسرعة متحاشيًا النظر في عيني "هشام"، الذي بقي على حالة مندهشًا من تصرفات "أكرم" الغريبة..

كان يرى أنه شخص مسيطر على نفسه بصورة جيدة حتى وإن حاول التظاهر بأن حياته كانت هي التي تسيطر عليه.. لم يبد عليه أي شئ لافت سوى قيامه

المفاجئ من على الأريكة وقت أن تطرق حديثه لعلاقة أبيه وأمه.. لم تختلف نبرته الهادئة التي بدأ بها حديثه إلا عندما بان فيها الحماس دفاعًا عن أمه وقوله أن عمته كانت مخطئة.. لكن الغريب في الأمر أيضًا أنه لم يتحدث عن موضوع ابنته على الإطلاق بالرغم من أنه يفترض أن يكون هو الغرض من اللقاء.. وتحدث عن طفولته هو عوضًا عنه..

"يبدو أن عقدته ليست خاصة به وحده".. حدث "هشام" نفسه وعدل من وضع نظارته الطبية ثم أمسك بهاتفه المحمول يطلب رقمًا.. قال بعد فترة:

- أيوه، لسه ماشي من عندي حالًا..

صمت برهة ثم قال مجددًا:

- عاوز أشوفك.

تهللت أساريره وقال بعد أتاه الرد من الطرف الآخر:

- إتفقنا، يبقى هعدي عليكي بُكره.

***

كانت "ليلى" راقدة في فراشها كعادتها في الآونة الأخيرة، كل شئ فيها نائم إلا عينيها وقلبها.. لو حسبت تلك الساعات التي قضتها راقدة في الفراش في العام الأخير

لوجدت أنها تتجاوز نصف سنوات عمرها الذي شارف على الأربعين.. أصبحت حياتها كلها فوق هذا الفراش، حزنها فوق الوسادة وألمها أسفل الغطاء.. حياة بات لا يشاركها فيها أحد.. فلا أحد يشاركها الحزن، ولا أحد يحس معها بالألم.. حتى "أكرم" حبها الوحيد لم يعد يشاركها أي شئ..

تنهدت في أسى حين تذكرت كيف كانت تحب "أكرم"، لا لم تكن تحبه بل كانت تعشقه.. كان يكفيها ما تقوله لها أمها وقت أن تقع عيناها عليه أيام العباسية: "يابت إتقلي، عينيكي فاضحاكي".. كانت لمعة عينيها دومًا ما تفضحها.. فلمعة العين عند رؤية من تحب هي الابجدية التي لا تنطقها الشفاه..

و"ليلى" كانت تؤمن أن الحب هو أسمى شئ في الوجود، من أجله خلق البشر.. كان الحب عندها أكبر من كل شئ، أكبر من الجنس أو حسن العشرة أو الإعتياد أو حتى الظروف.. وإلا ما كان هناك فارق بين رجل وآخر..

كانت بحكم تعليمها وخبرتها العملية، كأستاذة في الجامعة تدرس طب الأطفال، ترى إمكانية أن تمارس المرأة الجنس مع أي رجل فتلك غريزة فطرية جبلت عليها.. لكنها آمنت أن من المستحيل على المرأة أن تحب

سوى رجل واحد.. وقديمًا كانت قد قرأت مقولة صارت تؤمن بصدقها: "المرأة لا توجد في حياة الرجل سوى مرة واحدة، وكذلك الرجل.. وماعدا ذلك ليس سوى مجرد محاولات بائسة للتعويض"..

"ما الذي يجعل المرأة تقع في غرام رجل بذاته؟".. شغل هذا السؤال بالها كثيرًا حينما كانت في الجامعة..

كان هذا هو محور حديثها وزميلاتها وقتئذ.. تذكرت صديقاتها اللاتي اندفعن في متعة الجنس متوهمات بأنها هي الحب، لكن سرعان ما انطفأت تلك الجذوة المتقدة بالرغبة وخبا معها ما كن يتوهمن أنه الحب.. فالحب الحقيقي كما تعتقد لا تنطفئ جذوته أبدًا.. وأخريات كن يهربن من الحب لخوفهن من حرمة الجنس وعيبه، ففقدن أجمل وأسمى معنى يميز الإنسان عن غيره من سائر المخلوقات.. وغيرهن تعاملن مع الحب على أنه ضعف أو استسلام للرجل.. وكلهن عندها مخطئات..

كانت ترى أن الحب طاقة نورانية هائلة، قوة روحية كبيرة.. فشريعة الحب عندها أن تمارس ضعفها في حضرة قوته، ولا يعني ذلك ضعفًا أو خنوعًا.. بل على العكس تمامًا، كلما زادت المرأة قوة إزدادت قدرتها على الحب فيتحول حبها بمرور الوقت إلى عالم متكامل.. تجد ملاذها

بـين ذراعيـه، لا تخـشى أن تتجـرد أمامـه مـن كل شـيء دون خـوف أو خجـل.. تتجـاوز عـن أي عيـب فيـه، تـبرره وتعشـقه.. تضحـي بـكل شـئ مـن أجلـه دون أن تـدرك أن مـا تفعلـه تضحيـة.. كانـت تـرى الحـب يتمثـل في إمتـزاج روحهـا وذَوبانهـا في كيـان حبيبهـا.. ذلـك الحبيـب الـذي تجـد فيـه قلبهـا وعقلهـا، يومهـا وغدهـا.. تجـد فيـه حياتهـا بأكملهـا، وتجـد فيـه أيضًـا إحساسـها بجسـدها..

لكنهـا كانـت تظـن أن الحـب كالإنسـان تمامًـا، يمـر بـكل أطـواره المتغـيرة.. فقـد يمـرض أو يضعـف، لكنـه لا يمـوت إلا بمفارقـة الـروح لجسـد المحـب.. لـذا فقـد كانـت تؤمـن أن الرجـل القـوي هـو وحـده القـادر عـلى الحـب.. القـادر عـلى حمايـة حبـه مـن شـهواته وغرائـزه، الحامـي لحبيبتـه مـن نفسـه.. وكانـت تظـن أنهـا محظوظـة لكونهـا وجـدت مثـل هـذا الرجـل.. الرجـل القـوي المحـب، "أكـرم رشـدي".. لـذا لم تتنـازل عـن حبهـا لـه أبـدًا..

كان إحساسـها هـذا يولـد لديهـا شـعورًا متعاظـمًا بالخـوف.. الخـوف مـن فقـده يومًـا مـا.. وحتـى لا تفقـده كانـت تحـاول أن تفـرض سـيطرتها عـلى كل مجريـات حياتـه، لم تـترك شـئ لـه وحـده بـل شـاركته في كل أمـوره.. كانـت تعلـم أن محاولاتهـا تلـك تصيبـه بالضيـق والضجـر، لكنهـا

كانـت تتعجـب مـن استسـلامه لهـا.. حتـى باتـت تشـعر أنهـا مسـئولة عنـه وعـن حمايتـه، أصبحـت تشـعر أنهـا زوجتـه وأمـه في نفـس الوقـت..

أفاقـت مـن شرودهـا حـين سـمعت صـوت إغـلاق بـاب الشـقة، علمـت أن "أكـرم" قـد عـاد.. بعـد فـترة دخـل للغرفـة عابسًـا مقطبًـا جبينـه، حانـت منـه إلتفاتـة نحوهـا فوجدهـا في نفـس الوضـع الـذي إعتـاد رؤيتهـا عليـه مؤخـرًا.. راقـدة في الفـراش، تركـز نظراتهـا الجامـدة عـلى نقطـة وهميـة في السـقف.. تمتـم في غضـب ثـم غـادر الغرفـة سريعًـا.. إلتفتـت "ليـلى" نحـو بـاب الغرفـة ودمعـت عيناهـا حـين تذكـرت كيـف كانـت سـعيدة معـه قبـل أن تتحـول حياتهـما جحيـمًا.. لم تعـد تفكـر كثيـرًا في السـبب، ولا مـن المخطـئ.. فقـط باتـت موقنـة بأنهـا لم تعـد تسـتطيع التحمـل..

أغمضـت عينيهـا في ألم وهـي تسـحب الغطـاء فـوق وجههـا، إبتسـمت وهـي تسـتعد للقائهـا الهـام في الغـد.. لقاؤهـا مـع "هشـام وهـدان"..

***

...اليوم الثالث...

القلب يضغ بالصب مرة واحدة..

لشخص واحد فقط..

وما عدا ذلك، ليس سوى محاولات بائسة للنسيان..

(٧)

شعر المقدم "معتز الشامي" أنه لم ينم سوى خمس دقائق فقط حين سمع صوت نغمة هاتفه المحمول تتردد في تتابع سخيف.. بيد متكاسلة تحسس الكومود بجوار فراشه حتى وجد المحمول، بصعوبة فتح عينيه قدرًا يسيرًا حتى رأى وميض اسم المتصل على الشاشة.. فضغط زر الإجابة..

جاءه صوت "عمرو" على الجانب الآخر يقول في مرح:

- صباح الفل يا باشا.
- صباح الخير يا عمرو.
- سيادتك لسه نايم ولا إيه؟!، احنا بقينا الضهر.
- هقوم حالًا.

- طيب يا باشا علشان حضرت لك الملف بتاع إيمان الشهاوي، وكمان مدحت حمودة في الطريق.

- نص ساعة واكون عندك.

أغلق "معتز" هاتفه المحمول ومازالت عيناه تقاومان النعاس.. كانت تلك المرة الأولى التي يخلد فيها إلى النوم منذ أن تولى قضية مقتل"صفاء عبدالحميد".. نهض من فراشه متثاقلًا، كان يشعر برغبة شديدة في الحصول على قسط أكبر من الراحة.. إلا أن إنضباطه وتعلقه الشديد بعمله كانا أكبر من رغبته.. ارتدى ملابسه على عجل وأمسك بمفاتيحه يهم بمغادرة الشقة، لكنه تذكر شيئًا فأمسك هاتفه يطلب رقمًا..

جاءه الرد بعد فترة وجيزة فقال متصنعًا الود:

- صباح الخير يا طنط، أخبار صحتك إيه؟.

- أهلًا يا معتز.

- أُمال فين يُمنى؟!.

- يُمنى نايمة دلوقتي.

جز "معتز" على أسنانه لكنه تمالك أعصابه سريعًا ثم قال في نبرة حاول قدر المستطاع أن يحافظ على هدوئها:

- طيب، بعد إذنك إديني أدهم أكلمه.

ساد الصمت بعدها لفترة ثم جاء صوت ابنه على الطرف الآخر يقول في مرح:

- كل سنة و إنت طيب يا بابي.

إنتبه إلى أن اليوم يوافق يوم ميلاده.. حدث نفسه سرًا: "حتى دي كمان بقيت بنساها".. لكنه تمالك نفسه سريعًا وقال:

- و إنت طيب يا حبيب قلب بابي.

- بقى عندك كام سنة، ٢٠؟.

- لا يا حبيبي ٣٩.

- طيب إنت مش هاتجيبلي تورته علشان عيد ميلادك.

- حاضر يا حبيبي، هاكلم مامي و إتفق معاها علشان نحتفل كلنا مع بعض.

- بس أوعى تتأخر.

- هخلص الشغل واجيلك على طول.

ساد الصمت برهة ثم قطعه صوت "أدهم" يقول في براءة:

- بـابي، هـو احنـا مـش هنرجـع البيـت بتاعنـا بقـى؟!.. انـا اوضتـي وحشـتني.

أغمض "معتز" عينيه في ألم ثم قال:

- قريب يا حبيبي، قريب.

- طيب يلا باي بقى، تحب تكلم مامي؟

هـمَّ "معتـز" بالموافقـة عـلى طلـب ابنـه لكـن كبريـاءه منعـه فأجـاب:

- لا يا حبيبي سلم لي عليها بس.

أنهـى المكالمـة ثـم غـادر الشـقة محـاولًا إغـلاق بـاب الذكريـات التـي كانـت تـصر عـلى تشـتيت ذهنـه.. تذكـر كيـف كان يعتـبر زوجتـه "يُمنـى الألفـي" حبـه الوحيـد.. في ذاك الوقـت حـين كان ضابطًـا صغـيرًا يحـارب الدنيـا بأسرهـا حتـى يتمكـن مـن الفـوز بقلبهـا في معركـة جمعتـه مـع ابـن خالتهـا رجـل الأعـمال بالوراثـة والعريـس اللقطـة..

كان الـصراع بينهـما بالرغـم مـن ضراوتـه إلا أنـه كان يفتقـر إلى الندية، فالأخـير لديـه كل مقومـات الحيـاة الهنيـة بالإضافـة لدعـم خالتـه أم يُمنـى الشـديد لـه.. أمـا هـو فلـم يكـن يملـك سـوى مسـتقبل واعـد، وبذلـة بيضـاء اللـون يلمـع فـوق كتفيهـا نجمتـان ذهبيتـان..

تذكـر أنـه لم ينـل منـه اليـأس، وبـذل كل جهـده لإقنـاع والدهـا بالموافقـة.. كان الرجـل متحيـزًا لجانبـه بحكـم طبيعـة عملهـما المشـتركة، كان رحمـه اللـه لـواء شرطـة.. في النهايـة وأمـام إصرار "يُمنـى" ومسـاعدة أبيهـا لم تجـد أمهـا مفـرًا مـن الموافقـة عـلى مضـض بالرغـم مـن حالتـه الماديـة المتردية آنـذاك.. حتـى أنهـما تزوجـا في بيـت والدهـا أول الأمـر..

بعـد فـترة قليلـة توسـط لـه والدهـا لنقلـه للعمـل في المباحـث، ومـن يومهـا لمـع نجمـه وبـزغ اسـمه كواحـد مـن أكفـأ ضبـاط المباحـث.. ومنـذ ذلـك الحـين آمـن أن عملـه هـو وثيقـة تأمـين مسـتقبله ومسـتقبل ابنـه "أدهـم".. لكـن ذلـك كان عـلى حسـاب وقـت أسرتـه الصغـيرة، وهـو مـالم تتحملـه "يُمنـى" أبـدًا فـما لبثـت بعـد أن تـوفي والدهـا أن تركـت منزلهـما الصغـير وعـادت لأحضـان أمهـا طالبـة الإنفصـال..

- باشا، باشا.. وصلنا القسم سعادتك.

أفاقـه صـوت السـائق مـن شروده فدخـل لمكتبـه سريعًـا محـاولًا تجنـب الحديـث مـع أي شـخص.. كان مزاجـه متعكـرًا بعـد أن أصابـه الحـزن لمـا أخـبره بـه "أدهـم"، كان مصـدر حزنـه هـو شـعوره بالذنـب مـن كونـه سـبب ألم وغـم ابنـه.. وجـد عـلى مكتبـه ملـف التحريـات الخـاص بالقتيلـة الثانيـة

"إيمان الشهاوي".. طلب كوبًا من القهوة وأشعل سيجارة نفث دخانها في عصبية بينما كان يقلب في صفحات الملف:

"إيمان محمود الشهاوي".. وشهرتها بين أصدقائها "إيمي".. أنثى، مسلمة، مواليد الأسكندرية سنة ١٩٧٥.. متزوجة من "ياسر شعبان الدسوقي" يعمل بصورة متقطعة في تجارة السيارات المستعملة.. تركت الأسكندرية كي تلتحق بالعمل في واحد من أكبر فنادق القاهرة، تدرجت في الوظائف حتى أصبحت مديرة للعلاقات العامة.. لها ابنة وحيدة تقيم في الأسكندرية مع والدها..

تفيد مصادرنا أن القتيلة كانت لها علاقات كثيرة متعددة بحكم طبيعة عملها، مشهور عنها تحررها الزائد وميلها للسهر وحضور الحفلات.. لا تلقي بالًا لكلام الناس أو حديثهم عنها.. تقيم بمفردها في شقة إيجار جديد بحي المهندسين، تعيش في مستوى أعلى بكثير من المستوى الذي يمكن أن توفره لها وظيفتها أو دخل زوجها الغير ثابت.. تمتلك سيارة بيجو فخمة أحدث موديل، معروف عنها أنها مسرفة حد الجنون في إقتناء الملابس والمجوهرات..

قالت بعض زميلاتها في العمل أنها كانت ترى أن هدف المرأة في الحياة ينحصر في أن تستغل الرجال، لا شئ أكثر من ذلك.. كانت تعتقد أن أقصى ما يمكن أن

تقدمه المرأة للرجل هو جسدها، لذا كان واجبًا عليها أن تساوم عليه جيدًا حتى تحصل على أكبر ثمن.. قالت أخريات أنها كانت بارعة في التعامل مع الرجال، نجحت في استخدامهم ليوفروا لها هذا النمط المترف من الحياة الهنية التي كانت تعيشها..

لا توجد علاقة واضحة تربطها بالمجني عليها "صفاء عبدالحميد"، لكن يحتمل أنها كانت تعرفها بحكم عملها في مجال الفنادق..

- حمدالله على السلامة ياباشا.

رفع "معتز" عينيه عن التقرير وقال بهدوء:

- صباح الخير يا عمرو.

- صباح الخير إيه يا باشا!!، دي الساعة داخلة على ٣ العصر.

تجاهل "معتز" ملاحظة "عمرو" الأخيرة وقال بنبرة رسمية:

- في جديد عندك؟.

- تمام يا باشا، مدحت حمودة وصل سيادتك.

- خليه يدخل، وانت كمان خليك حاضر معانا.

- أوامرك يا باشا.

تناول "معتز" رشفة من كوب القهوة أمامه فامتعض وجهه حين وجدها بردت.. أشعل سيجارة جديدة وهو يعد نفسه للقاء طليق القتيلة الأولى، "مدحت حمودة"..

كان "معتز" قد استعد جيدًا لهذا اللقاء وأجرى التحريات اللازمة عن "مدحت"، توصل لمعلومات مفادها أنه شخص متشعب العلاقات واسع النفوذ والإتصالات بحكم عمله.. حتى أن شبكة علاقاته قد تجاوزت القطر المصري لتصل إلى حدود الخليج العربي..

و"مدحت" لم يكن من الشواذ الذين يجاهرون بميولهم، بل كان يضع حاجزًا صارمًا يمنع الغير من رفع الكلفة بينهم وبينه بل ويجبرهم على معاملته بكل إحترام.. ربما كان السبب في ذلك يرجع لدراسته وإقامته الطويلة فترة شبابه في باريس، والتي أصبح بعدها لا يجد عيبًا أو نقصانًا في ميوله المختلفة.. تذكر صورته التي انطبعت في ذهنه حينما كان يراه على شاشة التلفزيون يقرأ نشرة الأخبار الفرنسية وتلك اللثغة الواضحة لديه في حرف الراء..

إنتبه على صوت "عمرو" يقول بعد أن غمز بعينه في إشارة فهمها "معتز":

- مدحت بيه حمودة يا باشا.

أمسك "معتز" بهاتفه متظاهرًا بإنشغاله في مكالمة هامة وهو يشير بيده لهما بالدخول، كان يريد فسحة من الوقت يتأمل فيها ملامح "مدحت" وتعبيرات وجهه قبل أن يبدأ في استجوابه..

كان من الصعب على من يرى "مدحت" أن يعرف حقيقة عمره بالرغم من سنوات عمره التي تجاوزت الستين.. كل شئ فيه مرسوم بدقة عجيبة، كأنه نجم من نجوم هوليود في الخمسينات.. حتى أنك قد تظن أنه عد شعره الفضي قبل أن يرتب كل شعرة بجوار أختها في دقة متناهية.. طويل القامة عريض الصدر، له رأس ضخم وملامح وجه دقيقة.. بشرته القمحية ناعمة شمعية، تلمع لمعانًا غريبًا.. يرتدي بذلة سماوية اللون إيطالية التصميم تبرز رشاقة قوامه، يبرز من تحتها قميص كحلي مفتوحة أزراره قليلًا لتسمح بظهور وشاح حريري وردي اللون يحيط برقبته الطويلة.. فقط بعض التجاعيد الخفيفة خطت لنفسها طريقًا أسفل عينيه الضيقتين، اللتان تطويان داخلهما نظرات صارمة تدل على نمط حياة صاحبها..

"شرفتنا يا مدحت بيه"، قالها "معتز" بعد أن تظاهر بإنهاء مكالمته المزعومة..

مد يده يصافح "مدحت"، الذي صافحه في قوة أثارت دهشته.. بعد فترة من الصمت طلب خلالها "معتز" كوبين من القهوة اعتدل في مقعده ثم قال:

- الحقيقة مش عارف يا مدحت بيه أعزي حضرتك ولا أقول إيه.

- مش فاهم قصدك إيه يا حضرة الضابط؟!.

قالها "مدحت" وهو يضغط على حروف كلماته، تجاوز "معتز" طريقته في الكلام وأكمل:

- أقصد ان القتيلة يعني كانت طليقتك وكان لها علاقات.....

قاطعه "مدحت" في حدة:

- أنا ماسمحلكش تتكلم عن صفاء كده، في حاجة اسمها حياة شخصية.. مش معنى انها شخصية عامة ان حياتها تكون مشاع لأي حد يجيب سيرتها.

- حلو جدًا الكلام ده.. طيب سعادتك بقى شفت القتيلة إمتى آخر مرة؟.

- بقالي فترة طويلة ما شفتهاش.

- غريبة!!.

- الله يرحمها ماكانتش عاوزة تقابلني.

- ده علشان سبب طلاقكوا؟!، ولا في سبب تاني؟!.

رمقه "مدحت" في حدة، لكنه تمالك نفسه سريعًا ثم أجاب بنبرة مستفزة:

- على حد علمي من غير سبب، لكن لو عاوز تعرف حاجة تانية ممكن تسألها.

إغتاظ "معتز" لحديثه الفظ فقرر مهاجمته:

- البواب بيقول إنك كنت دائمًا بتتردد على شقتها، حتى بعد الطلاق.. إيه رأيك في الكلام ده؟.

- مضبوط، أنا فعلًا كنت بروحلها كتير علشان نرجع لبعض، لكنها كانت بترفض تقابلني زي ما قلت لك.

- أُمال كنت بتفضل واقف على الباب.

- لأ طبعًا، كانت داليا بتفتحلي وتقولي ان صفاء مش عاوزة تشوفني. لكن أنا دائمًا كنت بطمئن عليها من بعيد.

- كنت فين ليلة الحادثة؟.

- كنت مع بعض أصدقائي، وبعدين صفاء دي كانت بنتي قبل ما تكون حبيبتي ومراتي.

صمت "مدحت" قليلًا بعد عبارته الأخيرة ثم أردف بصوت متهدج:

- الله يرحمها.

إنهار بعدها في البكاء، وانهارت معه كل الحواجز التي كان يحيط بها شخصيته فبدا رقيقًا لينًا للغاية حين أخذ ينشج كالنساء.. تبادل "معتز" و"عمرو" النظرات لوهلة ثم قام الأخير بمناولة "مدحت" منديلًا ورقيًا ليجفف دموعه.. هز "معتز" رأسه ثم قال مخاطبًا "مدحت":

- شد حيلك يا مدحت بيه، مش كده.

لم يرد "مدحت" واكتفى بإيماءة بسيطة من رأسه، فأردف "معتز" متسائلًا:

- المرحومة كان ليها أعداء؟.

- إطلاقًا دي كانت زي النسمة، كل الناس كانت بتحبها.

- سمعت اسم إيمان الشهاوي قبل كده؟.

- إطلاقًا.

- معلش يا مدحت بيه هتقل عليك شوية بسؤال أخير.

- اتفضل.

- المرحومة كانت بتتعالج نفسي مش كده؟.

- مضبوط، بعد الطلاق على طول. المسكينة ماقدرتش تستحمل الصدمة فانهارت تمامًا وأنا حجزت لها....

قاطعه "معتز" في لهفة:

- عند مين يا مدحت بيه؟!، مين اللي كان بيعالجها؟!.

- في مصحة (وايت سيركل).

تبادل "معتز" و"عمرو" نظرات الحيرة فبادر "مدحت" بالقول:

- دي أشهر منتجع نفسي في الشرق الأوسط دلوقتي، وصاحبها دكتور دارس في أوروبا أكيد سمعت عنه، الدكتور هشام وهدان.

***

غادر "أكرم" منزله بمصر الجديدة قبل الثانية عشر ظهرًا بدقائق قليلة، متوجهًا لعيادته كعادته في الفترة

الأخيرة.. لم يكن لديه مكان آخر يتوجه إليه، كانت رغبته عارمة في مغادرة المنزل والأصوات والكوابيس..

اصطفت سيارته في طابور طويل لا نهاية له من السيارات بطريق صلاح سالم، كان الزحام شديدًا هذا اليوم بسبب البرك الموحلة التي سببتها الأمطار الغزيرة.. تأفف في ملل وهو يعبث بمفتاح جهاز الراديو في سيارته، أتاه صوت المذيعة تعلن بنبرة متكلفة عن نهاية موجز الأخبار وتخبره باستمرار الموجة الباردة الممطرة لنهاية الأسبوع.. لمح بعينه شعاعًا من الشمس يحاول إختراق السحب المتكاثفة في السماء فأغلق الراديو متمتمًا في ضيق:

"أفلح إن صدق"..

كان مزاجه متعكرًا منذ الصباح الباكر، لا يريد تكرار زيارته لعيادة "هشام".. إلا أنه يعلم بحالته النفسية السيئة، يعلم بحاجته إلى المساعدة النفسية أكثر من أي وقت سبق.. لكن ما أثار حنقه حقًا كان سلوك "ليلى"..

"ألم تجد سوى هشام لتلجأ إليه؟!"، حدث نفسه..

لم يكن يريد إفتعال المشاكل معها يكفيها ماهي فيه.. نفخ في سأم حين رأى مطلع كوبري أكتوبر وقد أصابه أصابه شلل مروري تام.. تحرك بسيارته أسفل الكوبري

إلى ميدان العباسية وغمرة، ثم أشعل سيجارته.. نفث مع دخانها غضبه وحنقه، معها هدأت أعصابه قليلًا.. إلا أن الأفكار والذكريات أخذت تتداخل في نفسه..

فكر في كل تلك اللحظات التي لن تعود ثانية، شعر بأنه نهب عاصفة مرهقًا بعبء الندم والإحساس بالذنب.. لم يكن على ما يرام بعد أن أصابته تلك الغصة الموجعة في حلقه، ثقل ذهنه من تتابع صور ابنته "فريدة" أمامه.. تذكر كل شئ، واشتاق لكل شئ.. لمستها الطفولية ونعومة خديها.. أول محاولة لها للمشي، أول كلمة نطق بها لسانها.. يداها الصغيرتان اللتان كانت تحركهما في كل اتجاه قبل أن تستسلم للنوم.. كان يستمتع في ألم بتذكر كل ما غاب عنه للأبد، كأنه يجلد ذاته..

دمعت عيناه وهو يذكر تلك الليلة التي حمل فيها "فريدة" بين يديه للمرة الأولى في مستشفى الولادة.. كان متأثرًا للغاية، خجلًا لكونه كان يرفض الإنجاب.. كان يرى أن إنجاب المزيد من الأطفال في هذا العالم البائس ظلم فادح لهم..

"كم كنت أحمقًا"، غمغم في حزن..

داهمته الذكريات بقوة فرأى تمامًا ما شاهده آنذاك.. طفلة صغيرة جدًا متدثرة بغطاء قطني أنيق، أصرت

"ليلى" على شرائه قبل ولادتها.. لها وجه متغضن وعينان مغمضتان.. تحرك يديها الصغيرتان في كل الاتجاهات.. في تلك اللحظة لم يكن يعرف أنها ستشغل يومًا كل تلك المكانة في قلبه.. وأن تلك المخلوقة الصغيرة ستغدو أهم عنده من نفسه.. لم يكن يتخيل أن مجرد وجودها في حياته سيمنحه كل هذا القدر من الفرح.. فجأة فتحت الصغيرة عينيها ونظرت نحوه بقوة، كأنها كانت تبلغه برسالة مفادها أنها في حاجة إليه.. سالت دموعه واعترته مشاعر قوية، استحوذ عليه حب لا حدود له.. أغمض عيناه في ألم حين تذكر أن فقدانها قد غير مجرى حياته إلى الأبد..

"يا حمااااار.."

إفاق من نوبة ذكرياته وشجونه على تلك الصيحة، وصوت فرامل حادة إلى جواره.. إنتبه لكونه كاد أن يتخطى الإشارة الحمراء لميدان التحرير.. هز رأسه بقوة رافعًا يده بالإعتذار وهو يرمي بنظراته صوب عسكري المرور، الذي سرعان ما أخذ يدون رقم سيارته في دفتر المخالفات المتخم عن آخره..

تلفت حوله كأنه يحاول العودة لعالم الواقع، تأمل لبضع ثوان حركة المرور المنتظمة في الميدان.. القادمون

من عبدالمنعم رياض، الذاهبون تجاه مسجد عمر مكرم.. العابرون من البوابة الحديدية الضخمة عند القصر العيني، المتجهون إلى طلعت حرب..

دق بأصابعه في عصبية على مقود السيارة، كان لا يزال يشعر بتعكر مزاجه عند مروره في هذا الميدان من جديد.. فما جرى فيه لن ينمحي من ذاكرته أبدًا.. الفرحة التي شعر بها حين خالط الناس، إحساسه بالمساواة بين الجميع.. المبيت في العراء في عز الشتاء، تبادل الطعام بين الكل.. أصوات الآذان وأجراس الكنائس، تراتيل الغناء وهمهمات الشعراء.. النقاشات السياسية الصاخبة، والنكات البذيئة الساخرة.. نقل الجرحى والمصابين.. مات كثيرون في سبيل حلم لم يروا تحقيقه..

رأى ضوء الإشارة يخضر فضغط بقدمه في قوة على دواسة البنزين، انطلقت سيارته سريعًا.. مغادرة الميدان يمينًا في إتجاه الدقي، كأنه يفر من تلك الذكرى التي ما عادت بالنسبة له سعيدة.. لم يعد يذكر ما الذي دفعه للنزول إلى الميدان آنذاك، لكنه نزل.. ومنذ ذلك الحين تغير بداخله شئ لا يستطيع تحديده، تغير إلى الأبد..

هـز رأسـه في أسـف حـين تذكـر مـا يقولـه النـاس الآن مـن أن الحيـاة قـد عـادت إلى مجراهـا الطبيعـي، ثـم حـدث نفسـه في حنـق:

- لم يعد شئ كما كان أبدًا.

إرتسـمت عـلى وجهـه إبتسـامة حزينـة وهـو يحـدث نفسـه في سـخرية مريـرة:

- لنتخلص من الماضي بك يا صباح، يا حديقتي الرائقة.

***

(٨)

جلسـت "ليـلى" أمـام مرآتهـا عـلى غـير عادتهـا في الفـترة الأخـيرة، تتزيـن للقـاء "هشـام وهـدان".. كان قـد حادثهـا مـرارًا صبـاح اليـوم، لكنهـا أخبرتـه أن ينتظـر حتـى يغـادر "أكـرم" البيـت.. كانـت عيناهـا الواسـعتان الغامقتـان تلمعـان، لكنـه لم يكـن لمعانًـا يـدل عـلى سـعادة أو فـرح.. بـل كان ينـم عـن شـعور فظيـع بالضيـق والضجـر، يـكاد هـذا الشـعور يقفـز خارجًـا مـن بـين أهدابهـا الطويلـة ليسـيطر عـلى ملامـح وجههـا القمحـي بأكملهـا..

نظـرت مليًـا لانعـكاس صورتهـا في المـرآة أمامهـا.. كانـت تعلـم جيـدًا أنهـا جذابـة، لكـن مـا كان يؤلمهـا أن أحـدًا لم يقـل عنهـا أبـدًا أنهـا جميلـة.. كانـت تظـن أن هـذا هـو السـبب في أن حياتهـا كانـت ومـا زالـت رتيبـة، لم تعـرف أحـدًا في حياتهـا سـوى "أكـرم"..

"ربما لو كنت شقراء أو من صاحبات الشعر الأحمر لكان حظي مختلفًا".. هكذا حدثت نفسها في مرارة..

مطت شفتيها الممتلئتين في قرف حين رأت تلك الظلال الرفيعة أسفل عينيها، والتي كانت تبدو أكثر وضوحًا خلال الليل.. كأنما أصابها الملل من هذه الصورة التي باتت تراها دومًا، وتذكرها بسنوات عمرها الأربعين.. مدت يدها تلتقط مشطها ذو الأسنان الواسعة، أخذت تمشط شعرها الأسود الطويل اللامع الذي انسدل على كتفيها في نعومة.. كانت تمشطه بحدة وعنف لا يتناسبان مع نعومته، كأنها تريد نزعه من فوق رأسها.. كما باتت تريد نزع نفسها من حياتها بأكملها..

ابتسمت في سخرية حين تذكرت كيف كانت تحب "أكرم" فيما مضى قبل وفاة "فريدة"، كانت لا تتصور الحياة بدون وجوده.. سرح خيالها بعيدًا حين داعبته ذكريات الماضي البعيد وأيام العباسية..

تذكرت ذلك اليوم الذي عرفت فيه من أمها بقدوم "أكرم" للإقامة في شقة عمته، جارتهم التي تقطن في الشقة الملاصقة لبابهم.. كان وقتها صبي لم يتجاوز الخامسة عشر ربيعًا، كانت هي في الثالثة عشر.. سمعت من أمها آنذاك أن والده ضابط كبير في الجيش وأنه انفصل عن والدته، ولم

يجد سوى أخته ليأتمنها على تربية ولده الوحيد.. تركت تلك الحكاية في نفسها أثرًا عميقًا، خليط عجيب من الشعور بالشفقة عليه والإحساس بالمسئولية عنه.. كانت ترى أن إبعاد صبي عن أحضان أمه في هذه السن المبكرة ظلم كبير..

لكن كانت صدمتها مماثلة حين مات أبوها، وتركها وأخوتها في رعاية أمها ربة المنزل.. تأثرت حالتهم المادية كثيرًا برحيل عائل الأسرة ورجلها، لم تجد الأم بدًا من العمل في حياكة ملابس جيرانها في العمارة.. ثم توسع عملها ليشمل سكان الشارع حتى باتت مشهورة في نطاق الحي بأكمله..

ترك عمل الأم في نفسيتها شرخًا عميقًا، ونظرة منكسرة لم تتخلص منها حتى الآن.. كانت وحيدة دائمًا بلا صديقات لأنهن كن يأنفن من مصادقة ابنة الخياطة.. وحده "أكرم" من كان يحوطها بابتسامته العريضة الواسعة.. كانت تلك الإبتسامة بالنسبة لها آنذاك هي الدنيا وما عليها..

أحبته من أول نظرة.. كانت تعلم أن الفتاة إذا ما أحبت فإنها تندفع وراء حبها في تهور، تفتح كل الأبواب أمام حبيبها.. لكنها وجدت الأمر مع "أكرم" مختلفًا.. كان يعاملها برفق واحترام، كأنه مسئولًا عنها.. شيئًا فشيئًا

بـدأت تحملـه مسـئوليتها بالفعـل.. كانـت تسـأله في اختيـار ملابســها، تســتأذنه قبـل مصاحبـة زميلاتهـا حتـى عندمـا كانـت تخـرج مـع أمهـا كانـت تسـتأذنه.. رضخـت لرأيـه دون مناقشـة.. سـاعدت أزمـة أسرتهـا الماليـة حبهـا، لم تجـد أمهـا مفـرًا مـن السـماح لـ "أكـرم" بالمذاكـرة لابنتهـا خاصـة وأنـه كان متفوقًا في دراسـته والتحـق بكليـة الطـب ثـم تخصـص في قسـم النفسـية والعصبيـة.. سـاعدها هـذا القـرب منـه عـلى التفـوق أيضًـا.. والتحقـت مثلـه بنفـس الكليـة، ثـم تخصصـت في طـب الأطفـال..

مضـت حياتهـما أيـام الجامعـة عـلى وتـيرة واحـدة، هـي تحبـه وتعمـل كل جهدهـا لإرضائـه وهـو يتحمـل مسـئوليتها كأب أو أخ.. حتـى صارحتـه ذات يـوم بحبهـا ففاجئهـا بإعتـذار مهـذب، أخبرهـا أنـه غـير مسـتعد للإرتبـاط.. بـرر لهـا إعتـذاره برغبتـه في اللهـو كسـائر الشـباب، ولأنـه يحترمهـا ويقدرهـا فلـن يتمكـن مـن اللهـو معهـا.. صدمتهـا إجابتـه فأصابهـا المـرض لفـترة.. ابتعـدت خلالهـا عنـه تمامًـا، حاولـت نسـيانه لكـن صورتـه كانـت لا تفـارق خيالهـا أبـدًا..

مـرت سـنوات ولازال "أكـرم" مسـتمر في لهـوه وعبثـه، وهـي خائبـة في التخلـص مـن صورتـه التـي لا تفارقهـا لحظـة واحـدة حتـى بعـد تخرجهـا بتقديـر امتيـاز وتعيينهـا معيـدة

بالجامعـة.. كثـيرًا مـا تـردد في صدرهـا سـؤال لم تتمكـن مـن الإجابـة عنـه:

"لماذا لا تتزوج هشام عوضًا عن أكرم؟"..

كانـت تعلـم يقينًـا أن "هشـام وهـدان" زميـل "أكـرم" في الدراسـة يهيـم بحبهـا، كانـت نظراتـه وتصرفاتـه دائمًـا مـا تفضحـه.. لكـن قلبهـا أبى أن يسـاعدها، فأخـذت تخطـط لاسـتعادة "أكـرم" مـرة أخـرى..

درسـت شـخصيته وحللتهـا جيـدًا.. وجدتـه مغـرورًا يريـد أن يشـعر أنـه أقـوى مـن أيـة فتـاة، يرغـب في السـيطرة والاسـتحواذ عـلى قلبهـا دون مقابـل.. وجدتـه غـير مسـتقر، حياتـه عابثـة كأي شـاب في مثـل ظروفـه أرغمتـه الحيـاة عـلى مفارقـة حضـن أمـه وكنـف أبيـه.. حـين حـددت علتـه بـدأت عـلى الفـور في تنفيـذ خطـوات العـلاج..

بـدأت تشـبع غـروره، تعمـدت أن تكـون هـي الفتـاة الأكثر جاذبيـة في أي مـكان يجمعهـما.. لم تـترك عاطفـة هادئـة كانـت أو جامحـة إلا وسـلطتها عليـه.. حتـى أنهـا كانـت تتعمـد أحيانًـا إغاظتـه وإثـارة غيرتـه حـين كانـت تسـمح لـ "هشـام وهـدان" بتوصيلهـا مـن الجامعـة حتـى مدخـل العـمارة.. كانـت تعلـم بـأن علاقتهـما ليسـت جيـدة، "هشـام" يغـار مـن "أكـرم" ويـراه شـابًا ثريًـا مدلـلًا.. و"أكـرم" ينظـر إلى

"هشام" من علياء، ويراه غير جدير بحمل لقب طبيب نفسي.. كثيرًا ما كان يردد أمامها:

"كيف يحل عقد الناس ومشاكلهم من كانت حياته مليئة بتراكيب النقص والدونية؟!"..

نجحت في سعيها بجدارة فعاد "أكرم" يتقرب منها، لكنها كانت تتدلل عليه.. في نفس الوقت كانت تعلم أن الوقت قد حان لإتخاذ الخطوة الثانية.. أن تجعله مستقرًا، بمعنى أدق أن تربطه بجدول حياتها.. فسمحت له بمحادثتها من جديد في الهاتف.. كان قد تخرج واستلم عمله في مستشفى الأمراض العصبية والنفسية، فتح عيادته الخاصة في شقة أمه بالدقي.. بدأ يعتاد على مكالماتها، كان يكلمها قبل الذهاب للعمل، وفي أثناءه وفور عودته.. وكثيرًا ما كان يحادثها قبل نومه..

أصبحت حياته مستقرة، منتظمة في روتين يومي يتطابق مع جدول يومها.. لم يكن عصيًا عليها بعد ذلك أن توحي له بالتقدم للزواج بعد حصولها على شهادة الدكتوراة..

أخرجها من بئر ذكرياتها الدفينة صوت جرس الباب، أخبرها حدسها أنه "هشام".. قامت واقفة بطولها أمام المرآة، ودارت حول نفسها دورتين.. تتأمل هيئتها للمرة

الأخيرة قبل أن تلقى "هشام".. ابتسمت حين رأت قوامها المتناسق الذي تمكنت من الحفاظ عليه بالرغم من تقدمها في العمر.. ثم تقدمت خارج الغرفة في إتجاه باب الشقة لتفتح له الباب..

وجدته كما هو، لم يتغير فيه شئ كأنها قد تركته بالأمس.. فقط باتت ملابسه أكثر تناسقًا وأناقة، وتلك اللحية الدوجلاس على وجهه ذكرتها على الفور بهيئة "أكرم" أيام الجامعة..

- إزيك يا ليلى.

أجابت بابتسامة هادئة ثم تحركت جانبًا تفسح له مجالًا للدخول.. دخل "هشام" والرهبة تملأ قلبه، خيل إليه أنه يسير في حلم انتظر تحقيقه طوال عمره.. هدوء جميل يسيطر على أجواء البيت، آنيات الورود الصناعي موضوعة في أناقة ظاهرة.. أثاث كلاسيكي متراص في نظام.. كل شئ في المكان يدل على شخصية صاحبته "ليلى"، تمامًا كما كان يتخيل..

تبعها كالمسحور حتى وصلا إلى الصالون، فجأة شعر بالضآلة حين رفع رأسه فرأى صورة زفاف "أكرم" و"ليلى" الضخمة تتوسط الحائط المقابل لمدخل الصالون.. أحس بشخصيته تضعف أمام نظرات "أكرم" الواثقة في الصورة،

إبتسامته الساخرة التي دومًا ما أثارت حنقه وود معها لو لكمه فحطم أسنانه.. لم يكن البيت أفخم من بيته الذي كبده تأثيثه ثروة طائلة، لكنها كانت شخصية "أكرم" التي تملكت منه وسيطرت عليه.. كانت هي التي أشعرته بالرهبة منذ البداية..

أشاح بعينيه بعيدًا عن الصورة ثم جلس على أريكة وثيرة بعد أن أشارت له "ليلى" بيدها، جلست على مقعد مجاور له.. ساد الصمت بينهما فترة لم يرفع "هشام" خلالها عينيه عنها، كان كالظمآن الذي وجد ماءً في الصحراء بعد بحث مضن وزمن طويل.. أخيرًا تغلب "هشام" على حاجز الصمت قائلًا في صوت خافت:

- لسه زي ما انتي يا ليلى.

صمت قليلًا ثم أردف هامسًا:

- حلوة.

لم تعقب، لكنها أرخت عينيها في خفر وتورد خداها قليلًا.. شجعه ذلك على مواصلة الحديث فقال:

- مش قادر أصدق أننا لوحدنا أخيرًا.. تعرفي إني حاولت أشوفك، لكن ماكنتش عارف أوصلك.. حتى لما جبت رقمك من زمايلنا في الجامعة وكلمتك كتير، لكن ما

كنتيش بتردي.. لغاية لما كلمتيني ما صدقتش نفسي، كنت طاير من الفرحة حسيت زي ما اكون.....

- هشام انا محتاجة لك دلوقتي اكتر من أي وقت.

قاطعته "ليلى" بصوت خافت فتشجع "هشام"، اقترب منها قليلًا وهو يقول:

- إللى تؤمري بيه، انت بس شاوري وأنا عليا التنفيذ.

صمتت ولم ترد، إزداد تورد خديها أكثر فأردف "هشام" بنبرة رقيقة:

- مش هقولك انت اللي فضلتيه عليا زمان، لأني عارف ان كل شئ نصيب.. لكن هقولك انك مش لازم تعملي نفس الغلطة مرتين.

رفعت عينيها الساهمتين نحوه ثم قالت بصوت خافت:

- تقصد إيه يا هشام؟.

- قصدي إنك لازم تسيبيه، إطلبي منه الطلاق.. ولو ما وافقش أنا ممكن أخليكي تتطلقي غصب عنه.

- إزاي؟.

- ده إنسان مختل، مش طبيعي.

- يعني إيه؟!.

- لسه لغاية دلوقتي مقدرتش أحدد هعمل معاه إيه، لكن كل اللي أقدر أقوله أن عقدته أعمق بكتير من موضوع موت فريدة.

- مش عارفه يا هشام لكن الموضوع ده...

- مفيش حاجة اسمها مش عارفه، انتِ هتطلقي منه وأنا هتجوزك.

***

طوال الطريق من قسم شرطة قصر النيل وحتى منزل عائلة "يُمنى" بالمنيل كان المقدم "معتز" مشغول الذهن.. يفكر بجدية في أمر تلك القضية التي لم يعد لديه شاغلًا سواها.. كان يعتبرها قضية هامة في مشواره الشرطي، خاصة مع الإهتمام الواضح بها من جانب قياداته سواء في المديرية أو الوزارة.. تذكر ما قاله له "عمرو" قبيل مغادرته للقسم:

- داليا يا باشا، اتصلت بسيادتك وعاوزة تيجي تقابلك.

"اه، داليا، داليا"..

خبط جبهته بكفه وهو يلعن ذلك التخبط الذي أصبح عليه مؤخرًا، أفاق على صوت فرملة قوية فالتفت للسائق يرمقه بحدة وقال:

- قلة التركيز دي هتوديك في ستين داهية.

أشعل سيجارته وسرح ببصره يتأمل الطريق، ومع شروده تذكر لقاءه السابق مع "داليا" ابنة اخت القتيلة الأولى.. كانت فتاة فائقة الجمال، شديدة الشبة بخالتها.. أخبرته حينها أنها ترغب في العمل بالفن، لكن أهلها رفضوا بشدة فلجأت لخالتها.. غير أنها فوجئت برفضها هي الأخرى، حتى أنها لم تكمل الإنصات لها وقتئذ.. أخبرتها أنها يجب عليها الإهتمام بتعليمها ومستقبلها، أعطتها مبلغًا من المال لتعطيه لأمها.. منذ ذلك اليوم أصبحت "داليا" تتردد عليها كل فترة لتحصل منها على المصاريف التي لم يكن والدها يتمكن من التكفل بها، ولا شئ أكثر من ذلك..

"ما الذي جد لديها لتطلب لقائي؟!"، حدث "معتز" نفسه.

هز رأسه باعدًا عنها التفكير في العمل حين إنتبه إلى أنه اقترب من منزل "يُمنى".. التفت للمقعد الخلفي

بالسيارة، ابتسم لرؤيته علبة كرتونية عليها علامة "لابوار" التجارية.. حدث نفسه وهو يبتسم بيقين :

- سيفرح أدهم بها، أكيد.

لكنه سرعان ما قطب جبينه حين تذكر أنه أخبر "عمرو" بالشراء من "لابوار" لأنه كان محل "يُمنى" المفضل.. هاجت مشاعره وتضاربت أحاسيسه حين فكر فيما وصل إليه حالهما.. لم يكن يتصور قط أن تصل أحاديثهما ذات يوم إلى هذه الدرجة من الجفاء والقسوة.. كيف يمكن لشخصين كانا مقربين لهذه الدرجة أن يتصرفا كغريبين؟!.. رمى بسيجاته من نافذة السيارة في حدة وهو يتمتم في حنق:

- أي أحمق كنت؟!.. بالطبع كان ذلك ممكنًا.

كل ما كان متوجبًا عليه فعله أن ينظر حوله فقط، فعمله كان هو السبب.. رغبته المحمومة في النجاح والارتقاء كانت هي السبب، إيمانه المترسخ في عقله منذ زمن بعيد بأن المضحين بجزء من حياتهم العائلية كانوا وحدهم من يضمنون النجاح.. ذلك هو القانون الغير مكتوب.. والثمن المطلوب دفعه ببساطة هو استقراره العائلي.. وقد قبل "معتز" ذلك عن طيب خاطر فلم الشكوى الآن؟!..

"أدهم هو السبب".. حدث نفسه وقد لمعت الدموع في عينيه..

كان قد علم أنه يحيا حياة مضطربة بسبب إنفصاله عن "يُمنى"، عرف من حماته ذات يوم أنه بالرغم من كون "أدهم" قد تخطى السابعة من عمره إلا أنه لا يزال يبلل سريره أحيانًا.. منطويًا على نفسه في المدرسة، لا وجود للأصدقاء في حياته..

حول هاتفه المحمول للوضع الصامت حين وصل أسفل العمارة، ضغط على الجرس وهو يرتب هندامه للقاء "أدهم".. و"يُمنى"..

طال وقوفه أمام باب الشقة حتى كاد أن يطرق الباب بكفه الغليظة، لكنه توقف حين فُتح الباب فجأة بعنف.. رسم على وجهه إبتسامة مغتصبة وقال بنبرة متصنعة:

- إزيك يا طنط؟.

- معتز!!، أهلًا.. ردت الحماة العجوز وهي تلوي شفتها السفلى في ازدراء.

حدثته نفسه الأمارة بأن ينادي سائقه من أسفل، ويصحبها معه في جولة سريعة بالقسم.. إبتسم حين تخيلها معلقة أمامه من قدميها.. دخل يزيحها بكتفه

عـن مدخـل الشـقة التـي يحفـظ أركانهـا عـن ظهـر قلـب ثـم قـال بصـوت مرتفـع لتسـمعه "يُمنى"و"أدهـم":

- أُمال فين أدهم، دا أنا جاي مخصوص علشانه.

انتبـه لمـن يتعلـق في رقبتـه مـن الخلـف وصـوت ضحكتـه التـي يعشـقها يرفـرف في أرجـاء روحـه.. سريعًـا وضـع علبـة التورتـة عـلى منضـدة قريبـة ثـم أمسـك بابنـه يقلبـه مـن فوق كتفـه، يقبلـه في حنـان بالـغ.. جلـس عـلى أريكـة بالقـرب منـه وأجلـس "أدهـم" عـلى فخـذه ثـم أخـذ يحدثـه ماسـحًا بكفـه عـلى رأسـه، لمـح حماتـه تغـادر الصالـة وهـي تتمتـم بعبـارات الإمتعـاض.. تجاهلهـا تمامًـا ومـضى يتحـدث مـع "أدهـم" عـن كل شـئ وأي شـئ، فقـط كان يرغـب في التحـدث معـه.. حدثـه "أدهـم" عـن رحلتـه المدرسـية لحديقـة الحيوانـات بانبهـار شـديد..

الغريـب في هـذا اللقـاء أن "معتـز" لم يكـن أبـدًا يتحـدث مـع ابنـه بهـذا القـدر.. فقـط عندمـا أخذتـه "يُمنـى" وغـادرا المنـزل..

"إزيك يا معتز"..

كاد قلبـه أن ينخلـع مـن مكانـه حـين سـمع صوتهـا مجـددًا.. رفـع رأسـه نحوهـا وقـال بصـوت خافـت:

- ما سمعتكيش وانتِ داخله.

وضعـت "يُمنـى" فنجانًـا مـن القهـوة السـاخنة عـلى المنضـدة أمامـه، حـاول مسـاعدتها في وضعـه لكنهـا سـحبت يدهـا سريعًـا.. كانـا مرتبكـين كعاشـقين افترقـا بسـبب ظـروف الحيـاة.. رشـف مـن فنجانـه رشـفة صغـيرة ثـم تنهـد في ارتيـاح، كانـت قهوتهـا هـي الوحيـدة القـادرة عـلى إصـلاح مزاجـه.. نظـر نحوهـا ثـم قـال في نـبرة حانيـة:

- تعـرفي إني لغايـة دلوقتـي مـش عـارف أشرب قهـوة غـير مـن أيـدك.

لأول مـرة مـن مـدة طويلـة يـرى ابتسـامة خفيفـة عـلى وجههـا.. شـجعته ابتسـامتها فـأردف قائـلًا:

- بقالنا كتير ما اتكلمناش مع بعض.

تراجعـت "يُمنـى" في مقعدهـا، انكمشـت فيـه ولم تعقـب.. قـرأ "معتـز" في صفحـة عينيهـا غيمـة حـزن.. كاد أن يسـألها عنهـا، لكـن "أدهـم" ابتـدره قائـلًا:

- ماما قالت لي انها مش مبسوطة هنا يا بابا.

- مالك يا يُمنى؟.

- مفيش.

- أنا حافظك كويس، بلاش تخبي عليا.

التزمت "يُمنى" الصمت ولم ترد، فأكمل "معتز":

- يا يُمنى أنا بحاول أحافظ على البيت ده لغاية آخر لحظة، من فضلك بلاش نخسر اللي...

قاطعته "يُمنى" في حدة وقالت تغالب دموعها:

- تحافظ على البيت، إحنا خسرنا كل حاجة من وقت طويل يا حضرة المقدم.

تجاهل "معتز" سخريتها من عمله وقال بهدوء:

- إيه إللي جابنا هنا يا يُمنى؟!.
- انت عارف كويس قوي إيه إللي جابني هنا.
- الله يرحمك يا عمي، لولا موتك ما كانش حاجة من دي.....
- مالكش دعوة بابا، المشكلة عندك انت.. انت مابقيتش الراجل إللي أنا حبيته وحاربت الدنيا كلها علشان اتجوزه.
- يعني خلاص مش بتحبيني.
- أنا ماقلتش كده.

- انتِ صحيح عارفاني من زمان يا يُمنى، لكن أنا هتغير.. حقيقي هتغير.
- أرجوك يا معتز كفاية كده، انت شغلك هو حياتك.. واحنا مجرد جزء بسيط فيها.
- ما هو انا لازم اشتغل، وبعدين انا بشتغل علشان مين؟.. مش علشان اقدر اسعدكوا!!.
- احنا كنا سعداء يا معتز، كنا سعداء.. لكن انت اللي عمرك ما كنت حاسس بينا.

أنهت "يُمنى" عبارتها الأخيرة ثم غادرت الصالة مسرعة وهي تمسح دموعها المنهمرة.. حاول "معتز" اللحاق بها لكن حماته وقفت أمامه بعد أن وضعت يديها على خصرها، تنظر له في تحد واضح.. تمالك أعصابه بصعوبة وربت على شعر "أدهم" ثم انصرف مغادرًا..

على سلم العمارة سالت دمعة من عينه حين حدث نفسه قائلًا:

"ليس هذا هو النجاح، إن استمر إهمالي لهما فلن أكون ناجحًا أبدًا"..

***

(٩)

دخـل "أكـرم" إلى عيـادة "هشـام" عابسًـا، كان مجـرد تفكـيره في لقـاء الأخـير سـببًا كافيًـا لذلـك التجهـم الـذي ارتسـم عـلى قسـماته.. لكـن مكالمـة "ليـلى" معـه منـذ مـا يقـرب مـن السـاعة كان لهـا أثـر كبـير في تراخيـه عـن تنفيـذ رأيـه، لم يكـن يريـد أن يزيـد حزنهـا.. فمنـذ وفـاة "فريـدة" لم يحـاول فـرض رأيـه عليهـا أبـدًا..

بقـي منتظـرًا مُسَـاعِدة "هشـام" لفـترة كي تسـمح لـه بالدخـول، ظـل خلالهـا يلعنـه في سره.. بعـد أن كان لقـاؤه سـببًا في ذهـاب إحساسـه بالإنتعـاش حينـما انتهـى لقـاءه السـاخن مـع حديقتـه الغنـاء "صبـاح"..

"إتفضل يافندم".. جاءه صوت الـمُسَاعِدة..

لم يـرد واكتفـى بإيمـاءة خفيفـة مـن رأسـه، رسـم عـلى وجهـه تعبـيرًا جامـدًا بـدا معـه أقـرب لتمثـال شـمعي ثـم

دخـل إلى غرفـة "هشـام" بخطـوات واثقـة.. فـور دخولـه أحـس بعينـي "هشـام" تفتشـان في ملامحـه كأنـه يحـاول أن يقـرأ أفـكاره، لكنـه ظـل محافظًا عـلى جمـود وجهـه حتـى لا يتمكـن مـن قـراءة شـئ خلالـه.. وقـف في منتصـف الغرفـة أمـام مكتـب "هشـام" بالضبـط ثـم قـال بنـبرة واثقـة:

- تحب أريح على الشيزلونج؟!.

صمت لولهة ثم أطلق ضحكة ساخرة وهو يقول:

- مش العيانين بتوعك بيناموا عليه برضه؟!.

- مش مهم.

أجـاب "هشـام" بنـبرة هادئـة.. لكـن "أكـرم" واصـل اسـتفزازه وتحـرك نحـو الأريكـة ملقيًـا جسـده فوقهـا وهـو يقـول متحديًـا:

- لأ، هنام على الشيزلونج.

تجاهـل "هشـام" تصرفاتـه العدوانيـة تمامًـا والتـزم الصمـت، فقـط أمسـك بمفكرتـه الصغـيرة وشرع يـدون فيهـا بعـض الملاحظـات.. بعـد فـترة مـن الصمـت قـال "أكـرم":

- تحب نبدأ منين؟.

- زي ما تحب.

فـرد "أكـرم" سـاقيه عـلى الأريكـة ثـم شـبك كفيـه فـوق صـدره وأغمـض عينيـه.. قـال بعـد فـترة مـن الصمـت:

- أنـا بـس عـاوزك تبقـى عـارف إني مـش هقولـك عـلى كل حاجـة، لأني عـارف كل أسراري.. مـش محتـاج مسـاعدة منـك في اكتشـافها واخراجهـا مـن عقـلي الباطـن.

- مـش كفايـة انـك تعـرف كل اسرارك، المهـم انـك تعـرف أي سر فيهـم هـو الـلي مسـبب لـك المشـكلة.

فتح "أكرم" عينيه وقال محتدًا:

- مش إذا كان عندي مشكلة من الأساس!!.

- أظـن ان دي حاجـة أنـا الـلي بحددهـا، مـش كـده يـا دكتـور أكـرم؟!.

أغمـض "أكـرم" عينيـه مـرة أخـرى، وبـدا كأنـه يعانـد نفسـه قبـل أن ينطـق بكلمـة واحـدة.. بعـد فـترة قصـيرة خـرج صوتـه هادئًـا بطيئًـا كأنـه يسـحب ذكرياتـه مـن جـب عميـق، وقـال:

حـين انفصـل أبـواي كنـت في الخامسـة عـشر مـن عمـري.. انتقلـت للإقامـة مـع أمـي في بيـت والدهـا في البدايـة لكنـي لم أسـترح هنـاك.. سريعًـا اسـتعادني أبي وأخـذني عنـده، بالطبـع لم يكـن وقتـه يسـمح برعايتـي لانشـغاله الشـديد بحكـم عملـه.. أخـذني في أحـد الأيـام لعمتـي بالعباسـية.. كانـت

أرملة لم تنجب، في هذا اليوم كانت عمتي شديدة اللطف بادية الحنان.. بالغت في تدليلي حتى أني أحسست نحوها بعاطفة تقارب ما أحسسته تجاه أمي.. حين عدنا لبيت أبي أخبرني بأنه يطلب رأيي في الإنتقال للإقامة مع عمتي.. لم يكن في الحقيقة يخيرني بل كان يبلغني.. ذهبت بعدها بأيام قليلة لبيت العباسية.. وكان هناك فارق كبير بين أمي وعمتي.. كانت أمي مثقفة، تحب الموسيقى والقراءة والسينما.. ربتني على أن أكون مثلها، كثيرًا ما ناقشتني في الكتب التي كانت تعطيها لي.. لا أذكر أنها في يوم قد ضربتني.. وكذا كان حال أبي فعلى الرغم من طبعه المتزمت، لكنه أبدًا لم يمانع ما كانت تفعله أمي معي.. أما عند عمتي فقد كانت حياتي عبارة عن مجموعة من التعليمات والأوامر، ولا شئ أكثر من ذلك.. المفروض أن تفعل هذا، لا تفعل هذا.. هذا خطأ، ذاك عيب.. سرعان ما فقدت قدرتي على الإحتمال وتحديتها.. وقفت أمي معي وأيضًا أبي، لكن ذلك لم يدم طويلًا.. فبعد أن ماتت أمي أصبحت عمتي شئ آخر..

سكت عندها "أكرم" ووقف سريعًا ثم قال في حسم:

- أظن كده كفاية النهاردة.
- كانت بتضربك؟.

- مين دي؟!.
- عمتك.

رمقه "أكرم" بغيظ ولم يرد على الفور، كان يعلم ما يحاول "هشام" فعله.. كان يحاول استدراجه إلى الكلام حين شعر أنه سيتوقف..

"طيب، لنر من سيتحمل للنهاية يا دكتور"..

حدث "أكرم" نفسه وهو يلقي بجسده على المقعد الوثير المواجه لمكتب "هشام".. تفرس في ملامحه جيدًا ثم قال:

- انا عاوز أحكي عن حاجة تانية.
- خد راحتك، انا هنا علشان اسمعك.
- متأكد؟!.

تجاهله "هشام" كأنه لم يقل شيئًا وتظاهر بكتابة بعض الملاحظات في مفكرته، لكن "أكرم" لمح تلك الحركة التلقائية بتعديل وضع نظارته الطبية حين يكون متوترًا.. أدرك اقترابه من تحقيق مسعاه، فقال على الفور:

- عاوز أكلمك عن صباح.
- مين صباح؟!.
- دي اللي كنت معاها قبل ما اجيلك على طول.

- معاها ازاي؟!.

- كنت نايم معاها.

بدا على نظرات "هشام" شئ من الغيرة، لمحه "أكرم" فذكره بتلك الغيرة التي كان يشتم رائحتها في صاحبه أيام الجامعة.. فقال:

- تحب أكمل؟.

- طبعًا.

أراح "أكرم" ظهره على المقعد الوثير ووضع ساقًا على ساق ثم قال كأنه يحكي لنفسه:

لعلك تعلم في قرارة نفسك أني لا أرغب في مواصلة هذه الجلسات معك، لكنها "ليلى".. كان ذلك يسبب لي ضغطًا كبيرًا، قررت أن أنفس عنه بلقاء "صباح".. ذهبت للعيادة بعد الظهيرة بقليل، أتتني هي بعدها ببرهة.. دخلت إلى الحمام كعادتها ثم خرجت كأنها تلمع، وقطرات الماء تنساب في لين فوق بشرتها الناعمة.. شعرها الغجري أكسبه البلل إغواءً مضاعفًا.. وقفت تنظر نحوي في غواية، ضامة شفتيها في قوة.. اقتربت مني وتعلقت ذراعيها في رقبتي، كانت أنفاسها هادئة تمامًا.. أسبلت عينيها وأزالت ضمة شفتيها فبدتا ممتلئتين، كثمرتي فراولة ناضجتين تدعوانك

لالتهامهما.. حين ضممتها والتقمت شفتيها شممت رائحة رائقة، كأنها رائحة طفل صغير..

قاطع حديثه صوت هاتف المكتب يرن في إلحاح.. رفع "هشام" سماعته صارخًا في محدثه:

- أنا قلت مية مرة مفيش مكالمات لما يكون عندي جلسة.

صمت قليلًا ثم نظر نحو "أكرم" وهو ينصت لمحدثه في جدية، قال بعد لحظات:

- معلش يا أكرم هعطلك معايا شوية.

- خير في إيه؟.

"المقدم/ معتز الشامي يا دكتور".. جاءهما صوت المساعدة يقول في نبرة رسمية..

نهض "هشام" من خلف مكتبه يستقبل "معتز"، بينما بقي "أكرم" جالسًا فوق مقعده الوثير دون أن يظهر على وجهه أي تعبير.. صوب "معتز" نظرة متسائلة نحو "أكرم" ثم قال مخاطبًا "هشام":

- أقدر أتكلم معاك على انفراد يا دكتور؟.

- اتفضل يافندم، مفيش حد غريب.. ده صديقي وزميلي الدكتور أكرم رشدي.

صافحه "معتز" وهو يتفرس في ملامحه ثم قال بعد أن جلس على المقعد المقابل لمقعد "أكرم":

- طيب عظيم، إذا كان كده بقى يا دكتور هشام حضرتك تعرف صفاء عبدالحميد؟.

اهتزت عين "أكرم" اليسرى قليلًا حين سمع اسم "صفاء"، لكنه تمالك أعصابه سريعًا وتظاهر بكونه لم يسمع شيئًا.. بينما قال "هشام" على الفور:

- أكيد، هو في حد ميعرفش النجمة الجميلة.
- يبقى أكيد عارف انها اتقتلت.
- سمعت انها اتقتلت، لكن معرفش.. المعرفة دي بتكون يقين يا سيادة المقدم، لكن كلام الجرايد والفضائيات والحاجات دي انت عارف انها في الغالب بتكون تهويل ومش حقيقة.
- طيب يا دكتور، انا عرفت انها كانت بتتعالج عندك من فترة.
- ده صحيح.

رمقه "أكرم" بحدة متعجبًا من كونه لم يعرف منها هذا الأمر من قبل.. لكنه تجاوز عن ذلك وأنصت لهما حين سمع "معتز" يسأل "هشام":

- هي المرحومة كانت عندها إيه بالضبط لما كانت عندكم؟
- أبدًا، شوية أعراض من بتاعة الشهرة.. اكتئاب، فقدان شهية .
- بس أنا عرفت انها لجأت لك بعد صدمتها في ميول زوجها الشاذة، ده حتى مدحت حمودة هو اللي دفع فاتورتكم الكبيرة.

تفرس "هشام" في وجهه لبرهة ثم قال في هدوء:

- سيادتك عارف ان دي اسرار المرضى بتوعي، وأنا لا أقدر اني افشيها.
- لكن ده تحقيق في جريمة قتل، وانا فضلت اتكلم معاك الأول قبل ما نجيب اذن النيابة والشغل ده.. قلت اكيد واحد زي حضرتك هيتعاون معانا.
- طبعًا.
- طيب يادكتور، مش عاوز اضيع وقتك اكتر من كده.. ده رقمي لو افتكرت حاجة ممكن تفيدنا.....

قاطعه "هشام" قائلًا:

- طبعًا أكيد هبلغك.

أمعن "معتز" النظر في عين "هشام" ثم رسم على وجهه إبتسامة علمتها له سنوات خبرته بالعمل في المباحث وهو يقول:

- أكيد.

ثم التفت نحو "أكرم" الذي كان متظاهرًا بالنظر في شاشة هاتفه المحمول، قال يخاطبه:

- وحضرتك كمان، معلش اسم حضرتك إيه تاني؟.
- دكتور أكرم رشدي.

أجابه "هشام" بنفاذ صبر ثم رافقه حتى غادر الغرفة.. ما أن أغلق بابها حتى التفت نحو "أكرم" فوجده ممتقع الوجه، بادره بالسؤال:

- خير يا أكرم، مالك؟.
- لا، مفيش حاجة.. تعبان بس شوية، محتاج أشم شوية هوا.
- مش هنكمل طيب.
- خليها مرة تانية.
- تحب أوصلك؟.

لم يجبه "أكرم" وانصرف مغادرًا كأنه يفر من أمر جلل.. أمسك "هشام" على الفور بهاتفه المحمول يطلب "ليلى" ثم قال بعد أن أتاه صوتها:

- لسه نازل من عندي حالًا.
- وأخباره إيه؟.
- ليلى؟!.
- نعم.
- انتِ مش لازم تكملي معاه، أنا النهارده اتأكدت من خيانته ليكي.

صمتت قليلًا ثم جاء صوتها واجمًا:

- عادي.
- لأ، مش عادي.. ده النهارده الجلسة كلها كانت على واحدة اسمها صباح وعلاقته بيها وبيعملوا إيه مع بعض.
- صباح!، انا معرفش حد بالإسم ده غير واحدة بس.
- مين يا ليلى؟.
- صباح، مراة بواب عمارة الدقي.

***

جلس "هشام" خلف مكتبه تتنازعه مشاعر وأحاسيس متضاربة.. كان شاردًا منذ أن غادر "أكرم" عيادته فجأة كعادته، يفكر في تلك الحالة الغريبة التي أصابت "أكرم" فجعلته يصل لهذه المرحلة.. كانت مهنته كطبيب تدفعه لمحاولة التوصل إلى حل لعقدة "أكرم" النفسية، لكن قلبه كعاشق كان يحثه على تعميق هذه العقدة ليتخلص من غريمه القديم.. ويفوز بقلب "ليلى"، حبيبة القلب والروح..

أمسك بقلمه وشرع يدون في مفكرته تحليله المبدئي لحالة "أكرم":

"أكرم رشدي" طبيب نفسي، غني ومثقف.. أعلم أن المثقفين هم أصعب أنواع المرضى النفسيين؛ لأن ثقافتهم تقف دائمًا حائلًا بينهم وبين استسلامهم للطبيب ثم الاستسلام لأنفسهم.. فالمثقف يستخدم علمه ومعرفته كفأس يحفر بها في أعماق ذاته، وهو بفعله هذا يستثير عقله الباطن ويعرض نفسه للأزمات النفسية.. أما الجاهل فلا تتوافر له القدرة عادة على مخاطبة نفسه واستثارة عقله الباطن، وحتى إن حدث ذلك فإنه لا يكون متعمدًا حدوثه..

وبالنسبة لحالة "أكرم" فثقافته تسبب له نوعًا من الرغبة في التمرد، التمرد على الطبيب والتمرد على نفسه..

أغلب جلساتي معه كانت تضيع في مناقشات وحوارات لا طائل من ورائها سوى محاولته التباهي أمامي بقدراته وعلمه.. كثيرًا ما انتابني شعور أنه يحاول مبادلة الأدوار فيما بيننا، فيكون هو الطبيب وأنا المريض.. جلساتي معه عبارة عن معركة إرادة.. معركة شديدة الشراسة بين إرادتين، إرادته وإرادتي..

وإذا كان "أكرم" مثله مثل غالب المثقفين أكثر عرضة للحالات النفسية من الجهلاء والعوام، ممن هم أقل منهم ثقافة بصفة عامة.. إلا أن لديه مشكلة أخرى؛ أنه كان غنيًا منذ طفولته.. فالأغنياء أيضًا أكثر عرضة للمرض النفسي من الفقراء.. فالفقير يشغله طوال الوقت السعي وراء رزقه، وهي حاجة ضرورية تهدد بقاءه، يحتاج دائمًا إلى يقظة عقله الواعي ليستخدمه في البحث عن قوته وقوت أبنائه.. هذه الحاجة تجعل العقل الواعي للفقير نشطًا قويًا طوال الوقت، وتجعل عقله الباطن يذبل ويضعف فلا يثير قلقًا لصاحبه.. حتى إذا ثار العقل الباطن للفقير فإنه يثور فجأة، تنطلق منه العقد النفسية في تصرف بدائي عنيف.. كأن يقتل أو يصاب بالجنون، دون أن تسبق هذه الإنطلاقة معاناة نفسية مستمرة.. أما الغني فإن الفراغ الذي يحيط به، لعدم وجود حاجة ضرورية تهدد بقاءه، يجعل عقله الواعي يتكاسل.. ويترك هذا التكاسل

مجالًا للعقل الباطن يسمح له بالنشاط والسيطرة.. حينها تبدأ معاناته النفسية..

أما أخطر مشكلة تواجه "أكرم"؛ أنه طبيب نفسي.. فالطبيب النفسي إن أصبح مريضًا أو مصابًا بعقدة نفسية وحاول علاج نفسه بأن قرأ كتبًا في علم التحليل النفسي تشخص مرضه أو تصف علاجه، ساءت حالته أو بات أكثر عرضة للأزمات النفسية.. لأن كتب الطب في معظم الأحيان تحتاج أثناء قراءتها إلى إرادة قوية، نفصل بها بين العقل الذي يعي ما نقرأه والإحساس بما نقرأ.. فحين نقرأ كتابًا عن مرض السرطان نشعر، إن غابت عنا قوة الإرادة، بكل أعراض المرض تنتقل إلى بدننا.. وكذلك عندما نقرأ كتابًا في علم النفس، نحس أننا مصابون بنفس الحالة النفسية التي يشرحها لنا الكتاب.. وهذه الإرادة هي الفارق الجوهري بين الطبيب المعالج، والطبيب المريض..

هذه على الأرجح هي حالة "أكرم رشدي" إن لم أكن مخطئًا.. طفولة غير مستقرة لإنفصال والديه وسوء معاملة عمته؛ نتج عنها ترسب عقدة نفسية في عقله الباطن منذ الصغر.. حياة ناعمة مترفه فارغة؛ لم يكن بحاجة لنجاح مادي أو مهني لنيل مكانة إجتماعية حظى بها منذ ولادته.. استخدم ثقافته وعلمه، كطبيب نفسي، كفأس

يحفر بها داخل نفسه ليصل إلى تلك العقدة.. لكنه بدل أن يصل إليها إستثارها، ضخمها وزاد من تعقيدها..

تنهد في إرتياح حين ترك القلم من يده بعد أن أنتهى من كتابة تحليله لحالة "أكرم".. أرتسمت على شفته إبتسامة خفيفة، كانت تلك عادته كلما نجح في فك طلاسم حالة مرضية تعرض عليه.. فتح درج مكتبه وأخرج منها سيجارًا فاخرًا ماركة "كوهيبا".. قطع طرفه ثم أشعله مستمتعًا بدخانه الكثيف، الباهظ الثمن..

حانت منه نظرة لكل تلك الشهادات التي تزين جدران غرفته فأصابته نشوة.. تذكر سريعًا أيام لم يكن يمتلك مصاريف دراسته.. لمعت أمام عينيه صورة "أكرم" اللامعة أيام الجامعة، وصورته منكسرًا الآن فمسح بيده على لحيته الدوجلاس في سعادة غريبة..

فجأة تقلصت ملامح وجهه وغامت عيناه بضيق وحزن دفينين، تذكر مثلًا شعبيًا كان أهل بلدته يتندرون به عليه دائمًا لما أحسوا بتعاليه عليهم بعد عمله كطبيب نفسي:

"قال لي يابا إمتى تشرفني، قلت لما يموت كل إللي يعرفني"..

***

... اليوم الرابع ...

الحُبُّ قَدَرٌ مَحْتُومٌ..

تَمامًا كالموتِ..

(١٠)

لا يعلـم مـا الـذي أتى بـه إلى هـذا المـكان، لا يسـعفه عقلـه المضطـرب في أن يحـدد السـبب.. كل مـا كان يذكـره أنـه حـين غــادر عيــادة "هشــام" كان التوتــر مســيطرًا عليــه، انتابــه خــوف شــديد مــن الحديــث عــن مقتــل "صفــاء".. اعــتراه قلـق كبـير مـن ذلـك الضابـط السـخيف ونظراتـه التـي كانـت تحـاصره طـوال فـترة حديثـه مـع "هشـام"..

جاهــدًا رفــع جفنيــه المتثاقلـين بصعوبـة بالغـة، حــاول إسـتجلاء الرؤيـة وسـط كل هـذا الدخـان الكثيـف.. كان الجـو مـن حولـه خانقًـا حـارًا، بالرغـم مـن تلـك الـبرودة القارسـة التـي تسـيطر عـلى أجـواء شـتاء القاهـرة، يمـوج بأجسـاد البشر المتلاحمـة في بدائيـة غريبـة.. يجلـس بعضهـم متجاوريـن عـلى مقاعـد خشـبية أو متحلقـين حـول مناضـد موزعـة في أرجـاء المـكان بعشـوائية، كانـت المناضـد عامـرة بصنـوف مختلفـة مـن الفاكهـة والمقرمشـات.. تراصـت فوقهـا زجاجـات البـيرة

الباردة وأحجار المعسل المخلوط بالحشيش، تجاورهم أطباق بلاستيكية ممتلئة عن آخرها بالسجائر الملفوفة..

"منورنا والله يا أكرم بيه يابن الأكابر"، انتبه على صوت بدا له مألوفًا..

إلتفت نحوه لا يكاد يرى تفاصيل وجهه، هز رأسه ثم إبتسم في بلاهة حين تعرف عليه.. تذكر أنه حين غادر عيادة "هشام" لم يكن يجد ما يفعله، قاد سيارته على غير هدى محاولًا التخلص من ذلك التوتر اللعين حتى وجد نفسه في العباسية.. أوقف سيارته أسفل عمارة عمته بعد أن شعر بحنين غريب إلى الماضي.. التقى حينها "نبيل البغدادي" أو "بلبل" كما كان الشباب يلقبونه قديمًا، ابن صاحب المقهى القابع أسفل العمارة.. كانت له ذكريات كثيرة أيام الصبا مع "بلبل"، لم يجد حرجًا من الجلوس معه لبعض الوقت لإجترار ذكريات الشباب.. جرهما الحديث لذكر حادث "فريدة" فأصر "بلبل" على إصطحابه معه لحضور فرح أحد الأصدقاء في باب الشعرية..

إنتبه على صوت ضجيج مرتفع.. كان إيقاع الموسيقى صاخبًا مؤذيًا، يطغى على كل الأصوات المحيطة بفضاء المكان حتى بات لا يسمع سواه.. في حين كان الكثير من

الحضور منهكمون في نوبات من الرقص.. كانوا يتراقصون في عشوائية وهمجية عجيبة، كأن حالة من الردة البدائية قد أصابتهم أو كأنما قد أصابهم مسٌ سُفلي.. كان الضجيج شديدًا، لكن حالة البلادة الناتجة عن المخدرات التي تعاطوها منحتهم شعورًا زائفًا بالطرب والإنسجام.. خصوصًا مع تلك الراقصة، العارية تقريبًا، التي كانت تتلوى وتهز أردافها في حركات يعاقب عليها القانون في الأحوال الطبيعية..

كان "أكرم" يتلفت حوله بين الفينة والأخرى في بلادة، أصبح الزمن بالنسبة إليه بطيئًا للغاية.. أخذ يجوب بعينيه فيمن حوله ثم ارتسمت على شفته السفلى إبتسامة باهتة أعقبها بأن حدث نفسه:

"لا أعلم ما المبهج في كل هذا الصخب والضجيج؟!.."

هز رأسه في لامبالاة ثم أردف:

"ربما يحاولون نسيان بؤس حياتهم، أو ربما تكون همجيتهم هي السبب من الأساس.."

"مسااااء الخيييير"..

أفاق من هذيان أفكاره على صوت أحد الجلوس بجانبه وهو يضع أمام وجهه الشاحب بوصة طويلة

من الغاب الأصفر اللون.. مد نظره الغائم متتبعًا نهايتها حتى إلتحمت من الأسفل ببرطمان زجاجي يمتلئ بالماء حتى نصفه تقريبًا.. لم يُعر الجالس بجواره أي إنتباه، فقط لبى ببلادة شديدة دعوته الكريمة.. أحكم وضع البوصة بين شفتيه ثم سحب نفسًا طويلًا جدًا أفرغ فيه كل شحناته السلبية، التي رافقته لفترة ليست بالقليلة مسببة له مزيجًا بائسًا من مشاعر الضيق والقلق.. توقف عن سحب الدخان فجأة حين سمع صوت طرقعة الفحم فوق الحجر، لمعت عيناه بوميض خافت حين شاهد لهب بسيط من النار يتراقص في مياعة أعلى سماسم الفحم..

"الله أكبر عليك ياباشا.. ولعت الراية يا كبير"..

نظر بعينيه الحمراوتين للفتى الصغير الذي يحمل في يده منقد الفحم بعد أن قال عبارته الأخيرة.. كانت نظرته جوفاء خالية من أي معنى حين رسم على وجهه إبتسامة صفراء باهتة وهو يتلذذ باخراج الدخان من فتحتي أنفه في هدوء شديد.. صفق الفتى الصغير بيديه جذلًا بعد أن أحس أنه قد أدى واجبه على خير وجه ثم غادر موقعه بجوار هذه المنضدة لشعوره بأن روادها قد حظوا بنصيبهم العادل من الكيف..

أحس بحرقة شديدة في صدره من جراء دخان الجوزة لكنه صمم على التظاهر بالقوة والتحمل.. إلا أن نوبة عاتية من السعال إجتاحت رئتيه كشفت عن ضعف شعبه الهوائية، وعدم قدرتها على تحمل كل هذا القدر من الدخان المحمل بعبق عطر الحشيش الفواح..

على الفور ناولنه أحدهم بكرم بالغ زجاجة باردة من البيرة، وهو يقول بصوت أجش تقطعت نبراته من جراء سعاله المتقطع:

"بلّ ريقك ياباشا تلاقيه نشف بس شوية"..

دون أدنى تردد تناول منه زجاجة البيرة ثم أفرغ نصفها تقريبًا في جوفه على دفعة واحدة.. شعر بعدها بثقل هائل يضغط على حجابه الحاجز، لم يذهب عنه هذا الشعور المقيت حتى تجشأ بصوت مرتفع.. داهمه دوار فظيع وإحساس مخيف بالإختناق.. نظر لساعة يده فوجد عقاربها تجاوزت منتصف الليل بدقائق قليلة.. قام واقفًا بصعوبة بعد أن استند على كتف الجالس إلى جواره..

"على فين يا أكرم بيه؟!.. ما لسه بدري"..

رفع كفه محييًا "بلبل" وهو لا يكاد يرى تفاصيل وجهه ثم قال:

"هاطلع بره أشم شوية هوا وراجع تاني"..

***

لم يمض سوى ساعتين فقط على دخول "معتز" لبيته حتى رن هاتفه المحمول.. بدد ذلك الرنين الصمت الذي أصبح يميز بيته بعد أن هجرته زوجته.. مد يده بارهاق شديد حتى ضغط على زر الإجابة، سمع صوت "عمرو" يقول بتوتر شديد:

- مساء الخير يا باشا.
- الساعة كام دلوقتي؟.
- ٢ الصبح يا باشا.

تأفف "معتز" وهو يقول في حدة:

- ياريت يكون في حاجة تستاهل.
- شقة صفاء عبدالحميد.
- مالها؟!.
- في ناس اقتحمتها من شوية، فضوا الأختام من على الباب وفتشوها.. مش عارفين إذا كانوا أخدوا حاجة منها ولا لأ.

إنتفض "معتز" جالسًا على الفور ثم قال بنبرة آمرة:

- قابلني هناك حالًا.

أخذ دشًا دافئًا في عجالة ليذهب أثر النعاس عن رأسه، وارتدي ملابس ثقيلة تمده بالدفء اللازم لمواجهة برودة الطقس.. غادر بيته ونزل السلم عدوًا بعد أن تلفح بكوفية من الصوف، كانت "يُمنى" قد أهدتها له في عيد زواجهما الثالث.. قاد سيارته الخاصة متجهًا إلى الزمالك حيث شقة "صفاء عبدالحميد".. كان الطريق خاليًا تمامًا في مثل هذا الوقت المتأخر مما سمح له بتلك السرعة الكبيرة التي كان يقود بها.. لكن عقله كان يعمل بسرعة أكبر.. فمنذ مغادرته لعيادة "هشام وهدان" وبذور من الشك كانت تنبت في سرعة مضطردة داخل قلبه.. كان حدسه يخبره بأن هذا الطبيب له علاقة بمقتل "صفاء"، أيضًا نظرات صديقه "أكرم" لم يسترح لها على الإطلاق.. حين دخل إلى مكتبه في القسم راجع كل أوراق القضية.. اتصل يتعجل تقرير الطب الشرعي وتشريح الجثتين.. حاول الإتصال بـ "داليا" لكن هاتفها كان مغلقًا على الدوام..

أوقف "معتز" سيارته أمام عمارة "صفاء" بعد أن ضغطت قدمه بعنف على دواسة المكابح، أصدرت صَوتًا

مُرْتَفِعًا سُمع بوضوح تبدد معه الهدوء المعروف عن حي الزمالك في هذا الوقت المتأخر من الليل.. هبط منها بخطوات نشطة، قذف بمفاتيحها لأحد رجال الشرطة المنتشرين في الشارع الضيق والمكتظ بهم مدخل العمارة.. ارتسمت على ملامحه آيات التركيز الشديد وهو يجيل بصره حوله مفتشًا في الوجوه.. حين شاهد "عمرو" يتحدث لأحد الوقوف بادره قائلًا:

- فين فرد الأمن السري يا عمرو؟.

- موجود يا باشا، أنا سألته كان فين وقت اللي حصل قال لي إنه غاب نص ساعة بس.. راح يشرب شاي في القهوة اللي على الناصية.

جز "معتز" على أسنانه في غيظ ثم قال:

- والبواب كان فين؟.

- من امبارح اخد مراته وعياله وسافر على البلد.

- ابعتله وهاته.

صمت "عمرو" ليرهة ثم قال في تردد:

- محدش يعرف بلده إيه يا باشا؟.

- نعم!!، يعني إيه؟.. اختفى بسلامته، اجمعلي باقي البوابين.. خليهم يتصرفوا.

أنهى "معتز" عبارته الأخيرة ثم تحرك بخطوات غاضبة نحو سلم العمارة.. صعد درجاته في سرعة ثم دلف للشقة، كان رجال الشرطة يفتشون في كل أرجائها بحثًا عن شئ يدل على شخصية المقتحمين.. جال "معتز" ببصره فهاله ما أصاب الشقة من فوضى.. معظم الأثاث الفاخر محطم، التحف والآنيات مهشمة.. كل أرفف المكتبات تم تفريغها، إلقاء محتوياتها على الأرضية الخشبية للشقة.. دخل إلى غرفة نوم صفاء، كان الحال فيها مثلما كان خارجها.. فوضى عارمة ودمار شامل..

غادر الشقة ووقف أمام مدخل العمارة يدخن سيجارة، نفث دخانها في غضب والتفت في حدة نحو "عمرو" حين سمعه يقول:

- تقرير الطب الشرعي وصل يا باشا.

- بيقول إيه؟.

- مفيش أثار معاشرة جنسية عند القتيلتين، فقط شوية كدمات وسحجات لكنها بسيطة.. تدل على ان مقاومتهم كانت ضعيفة.

- سبب الوفاة يا عمرو، أنا اعصابي مش مستحملة.
- وفاة صفاء كانت نتيجة صدمة عصبية حادة من أثر طعنها بالسكين في المكان اللي .....

قاطعه "معتز" بنفاذ صبر:

- مفهوم، مفهوم.. في حاجة تانية؟.
- وفاة إيمان كانت نتيجة اسفكسيا الخنق.
- دي كانت حاجة واضحة زي الشمس.

صمت "معتز" قليلًا ثم تأفف حين قال في ضيق:

- مفيش أي حاجة تانية ممكن تساعدنا؟.
- القتيلتين كان في أثر لمخدر في جسمهم.
- كانوا بيتعاطوا حاجة؟!.
- لا يا باشا، اللي قتلهم خدرهم الأول.
- عرفوا نوع المخدر؟.
- مخدر من اللي بيستخدم في الأغراض الطبية.

لمعت عينا "معتز" بقوة وارتسمت على شفتيه إبتسامة غامضة ثم قال وهو يتحرك نحو سيارته:

- خلص شغلك وحصلني على القسم، قبل ما النهار يطلع عاوز أشوف زوج إيمان الشهاوي.. وكل أفراد الأمن السري يسيبوا اللي في أيديهم ويجيبولي داليا من تحت الأرض.

***

لم يُرد "أكرم" العودة لمنزله وهو على تلك الحالة خصوصًا بعد أن تجاوزت الساعة الثانية صباحًا، قرر التوجه لعيادته بعد أن أصبحت هي ملاذه الأخير الذي يلجأ إليه كلما ضاقت به السبل.. حين أوقف سيارته أمام العمارة ومضت في عقله فكرة اللجوء إلى "صباح" لعل رحيقها يساهم في التخفيف من حدة توتره.. ابتسم حين تخيل نفسه ينهل من رحيقها، لكنه لعن سوء حظه عندما وجد غرفة "صلاح" البواب مغلقة بقفل ضخم.. علل ذلك بأن الرجل و"صباح" ربما سافرا إلى بلدتهما لقضاء بعض الأمور، لكنه تعجب من كونها لم تخبره بسفرها على الرغم من لقائها معه قبل ساعات قليلة..

دخل عيادته على ضوء كشاف هاتفه المحمول بعد أن وجدها غارقة في ظلام حالك..

"يبدو أن الملعون صلاح قد فصل وصلة الكهرباء"، حدث نفسه سرًا..

ودخل لغرفته يفتش فيها عن زجاجة الشيفاز ريجال أملًا في أن تذهب لذعة الكحول من فمه طعم تلك المرارة التي باتت تحاصر حياته.. أشرق وجهه في الظلام حين عثر على ضالته داخل مكتبته التي علا رفوفها التراب.. جلس خلف مكتبه يشرب من الزجاجة في نهم شديد.. بعد فترة قصيرة بدأ الخدر يسري في أوصاله ومعه سرح خياله في "صباح"..

رآها لأول مرة في ذلك المساء الذي غادر فيه عيادته متأخرًا كعادته.. حينها سمع صوت صراخ وعويل يأتيان من جهة مدخل العمارة.. توجه نحوهما سريعًا بعد أن تملكه الفضول، فرأى "صلاح" ممسكًا بشعر فتاة شابة في أواخر العشرينات.. يجرها على الأرض بعنف، ويبرحها ركلًا بمنتهى القسوة.. والمسكينة تتلوي وتصرخ من الألم أسفل قدميه.. أخذته شهامة نتجت عن كأسين من الكحول تجرعهما قبيل مغادرته العيادة، فتدخل يحول بين الرجل وبين الفتاة.. خلف ظهره القوي التصقت الفتاة محتمية من بطش "صلاح"، الذي لم يهدأ إلا بعد أن نفحه "أكرم" عشرة جنيهات كاملة..

لم تسترع هذه الفتاة إنتباهه في ذلك المساء، لكنها شغلت عقله حين زارته في العيادة بعد تلك الواقعة بثلاثة أيام.. وجدها تطرق بابه بعد إنتهاء مواعيد العمل في العيادة وانصراف مساعده، لم يكن يعلم أنها زوجة "صلاح" البواب في ذلك الوقت.. أخبرته أنها جاءت لتشكره، أطال حينها النظر في عينيها البنيتين.. كانتا تحملان في داخلهما نظرات تعبر عن كل المتناقضات.. حزن عميق وفرحة طفولية، خوف عظيم وجرأة كبيرة.. أدخلها لغرفته ماشيًا خلفها يتأمل عبائتها السوداء الضيقة، ومن أسفلها ظهر جسدها الذي بينت رجرجته أنوثتها بوضوح.. ظهرت أطراف شعرها البني مموجة في عجرية مثيرة من أسفل طرحتها المزركشة.. كان كل شئ فيها جامحًا يحرك مكامنه..

بعد أن أجلسها أخبرته أنها منذ أن مات أبوها لم تجد من يدافع عنها أبدًا.. صدمته كانت كبيرة عند علمه أنها زوجة "صلاح" البواب؛ كان الفارق بينهما يتجاوز الأربعين عامًا.. أخبرته بأنها لا تعرف كيف توفيه حقه من الشكر، لكنها قالت بجرأة ألجمته أنها لا تجد سوى طريقة واحدة لرد جميله.. تسمر في مكانه لوهلة حين فهم مقصدها، إلا أنها بادرته تسأل عن مكان الحمام..

حـين أخبرهـا غـادرت نحـوه سريعًـا، وسـمع بعدهـا صـوت انسـياب المـاء..

بعـد فـترة قصـيرة خرجـت دون أي شـئ يسـترها، تلمـع كنجمـة تتـلألأ في سـماء حياتـه المظلمـة.. وقطـرات المـاء تنسـاب في سـهولة ولـين فـوق بشرتهـا القمحيـة الناعمـة.. كانـت حقًـا جميلـة بعـد أن أكسـب البلـل شـعرها الغجـري إغـواءً مضاعفًـا.. وتلـك الرائحـة الطفوليـة الرائقـة التـي اشـتمها حـين ضمهـا والتقـم شـفتيها جعلـت ذراعيـه ترتخيـان والدمـاء تفـور في جسـده.. برفـق أحكـم الإمسـاك بدفتهـا، فقادتـه بحنكـة نحـو موجـات عاتيـة مـن العشـق.. كان آخـر مـا سـمعته أذنـاه قبـل أن يغـرق معهـا في بحارهـا صوتهـا يهمـس بلهجتهـا الريفيـة في تـأود:

"ريحتك حلوة قوي يا سي الدكتور أكرم"..

سرى مفعـول الكحـول في رأسـه فصـدرت عنـه ضحكـة عاليـة، تـردد صداهـا في فضـاء غرفتـه حـين تذكـر ذلـك اليـوم.. أشـعل سـيجارة ثـم مـد يـده يفتـش في درج مكتبـه الأيمـن العلـوي، عـثر عـلى ضـوء كشـاف هاتفـه المحمـول عـلى ملـف أخـضر اللـون مكتـوب عليـه بخـط واضـح (ملـف السـيدة/ صبـاح عبدالمتجـلي صميـدة).. شرب مـن زجاجتـه بينـما كان يقلـب في أوراق الملـف.. ومعـه تذكـر مـا جمـع بينـه وبـين

"صبـاح"، تلـك اللقـاءات والجلسـات بينهـما.. أصبـح يكـن لهـا بعدهـا شـعورًا خاصًـا..

أخبرتـه "صبـاح" أن قصتهـا بـدأت مـن اليـوم الـذي وقفت فيـه بجـوار والدهـا، وهـو مسـجى عـلى فـراش المـوت.. كانـت في الثانيـة عـشر مـن عمرهـا حـين كان كل شـئ فيـه يمـوت أمامهـا ببـطء شـديد.. عينـاه وأنفاسـه، حتـى وجهـه بـدأ يفقـد سـمار لونـه ويتحـول تدريجيًـا للـون شـاحب لا تعـرف لـه إسـمًا.. كانـت تقـف بجانبـه تراقـب في صمـت تـام، كأنهـا تخـشى أن تتكلـم فيـسرع حديثهـا مـن موتـه.. فقـط إكتفـت بالتفـرس في ملامحـه بحثًـا عـن ذلـك الأب الـذي تعرفـه.. الذي كان يعـرف دائمًـا كيـف يضحكهـا، ينـشر مـن حولهـا أزرع الرعايـة والحمايـة.. الـذي كان يختصهـا دومًـا بقبلـة صباحيـة وأخـرى قبـل الخلـود للنـوم..

إقتربـت منـه تحـاول تقبيلـه مثلـما كانـت عادتهـما، لكنهـا لم تجـد منـه أيـة ردة فعـل.. فقـط كانـت تسـمع صـوت أنفاسـه الوهنـة.. شـهيق قصـير خافـت، يعقبـه زفـير طويـل حـاد.. تحـول إيقـاع حياتهـا بأكملـه خـلال تلـك اللحظـات إلى إيقـاع يماثـل صـوت أنفاسـه.. نامـت برأسـها عـلى صـدره بعـد أن سـالت الدمـوع مـن عينيهـا، سـمعت صـوت زفـيره يخـرج طويـلًا، لكنـه كان هادئًـا.. رفعـت رأسـها تنظـر نحـوه، لكنهـا

لم تجد أي تغيير في صورته.. فجأة، سمعت أمها تصرخ مولولة.. علمت أن أباها قد مات..

أصابتها حالة من الذهول، كأنها لم تتصور أن يمتد الموت إلى والدها.. لكنها كانت في ذهولها ترقب باندهاش شديد تلك الضجة الكبيرة التي أقامتها أمها في ليال العزاء.. حتى أنها تذكر جيدًا كيف وجدت أمها تتزين صبيحة اليوم التالي للوفاة، كانت تقف أمام مرآتها المشروخة تعدل وضع عباءتها السوداء الضيقة على جسدها.. تشد جزئها العلوي فوق صدرها لأسفل، تبرز ذلك الفرق الواضح بين نهديها.. تربط طرحتها السوداء فوق رأسها، تتعمد أن تترك القليل من شعرها البني المتموج ينسدل فوق جبهتها..

وقفت ترقب أمها في سخط لا تعلم له سببًا.. أحست أنها تريد لومها، لكنها لم تستطع أن تفعل.. لمحتها أمها في صفحة المرآة فقالت دون أن تلتفت إليها:

- الله يرحمه، أهو ارتاح من عذاب المرض.. الدور والباقي علينا إحنا، مين اللي هيريحنا من عذابنا؟.

قالت عبارتها بنبرة طبيعية للغاية، ليس فيها أي حزن.. كأن تلك الضجة التي تقيمها فرح لا عزاء.. كان يبدو عليها أنها شديدة الانشغال، أنها تستعد ليوم ستكون

فيه عروسة تحتفل بزفافها.. انهمرت دموع "صباح" غزيرة في ذلك اليوم، لكنها كانت دموعًا صامتة.. حتى كادت تختنق فركضت إلى غرفتها المتواضعة، ثم أجهشت بالبكاء.. كانت دموعها حارة صادقة، دموع من اكتشفت أنها أصبحت يتيمة..

لم يطل إنتظار "صباح" كثيرًا حتى أكدت لها الأيام صحة توقعها.. فبعد أسبوع واحد فقط فتحت أمها باب غرفتها بعنف كأن عاصفة اقتلعته ثم صاحت بها:

- انتِ لسه قاعدة متنكدة وسايباني شايلة الهم انا واخواتك، يلا قومي سلمي على الضيوف.

كانت تلك هي المرة الأولى التي ترى فيها "صلاح".. كان قد حضر راسمًا على وجهه ملامح الحزن، مدعيًا تقديمه لواجب العزاء.. لكن "صباح" لمحت تلك النظرات الغريبة التي كان يتبادلها مع أمها.. بعد فترة بدأ يكثر من زياراته للبيت، أمها تتحرر من ثيابها أمامه أكثر فأكثر.. و"صلاح" يزيد في كل زيارة من الهدايا، العطايا والمال..

في أحد تلك الليالي التي بقيت ذكراها تنخر في عقل "صباح".. سمعت صوتًا صادرًا من غرفة أمها فتوجهت نحوها على الفور.. وجدت أمها وقد تأود عودها عشقًا

بين أحضان "صلاح".. مع مرور الوقت أصبح "صلاح" فردًا من أفراد العائلة، كان يتكفل بكل نفقات البيت.. لكن بعد حين بدأ يكشف عن نواياه الحقيقية..

بدأ يرسل أخواتها اللاتي يكبرنها في السن إلى قرى ومراكز مجاورة في أيام الأسواق والموالد، يؤجرهن لراغبي المتعة.. ومن عرقهن كان يترك مصروفًا ضئيلًا في يد الأم.. حتى بدأت الخلافات تدب بينه وبين أمها حين اكتشفت الأخيرة أنه يراود واحدة من بناتها ويتحرش بها.. طردته خارج البيت، وبقيت تجتر أحزانها وحدها.. لم تتحمل صدمتها كثيرًا فماتت بعدها ببضعة أسابيع.. وبقيت "صباح" مع أخواتها يواجهن قسوة الحياة..

كانت الأخوات قد احترفن بيع أجسادهن لراغبي المتعة في البلدان المجاورة.. بدأن يضغطن عليها لكي تحذو حذوهن.. رفضت في البداية، لكنها سرعان ما رضخت تحت وطأة شظف العيش..

بعد فترة أبلغتها أخت لها أن هناك من يطلب يدها للزواج، فرحت ورسم لها خيالها آمالًا عريضة.. كانت صدمتها قوية حين علمت أن هذا العريس المرتقب كان "صلاح".. أخبرتها أختها أنه سيأخذها معه للقاهرة حيث رغد العيش.. صاحبته إلى القاهرة كبقرة يجرها صاحبها

للذبح.. حين وصلت علمت أنه حارس لأحد العقارات بالدقي.. أجر لها بادئ الأمر شقة متواضعة في بولاق الدكرور ثم نقلها لعمارة الدقي بعد وفاة زوجته الأولى.. بعد فترة بدأ يستخدمها في خدمة الشقق المفروشة، ثم بدأ يعرض خدمات جسدها على من يُقَدِّر جماله..

أغلق "أكرم" صفحات الملف ثم أزاحه من أمامه في ضيق.. نظر نحو زجاجته فوجدها شارفت على الإنتهاء.. جرع ما بقي منها في جوفه دفعة واحدة، تجشأ في صوت مسموع ثم نظر في ساعة هاتفه المحمول فوجدها تجاوزت الرابعة صباحًا.. قام يترنح من مكانه خلف المكتب حتى وصل إلى الأريكة التي كان يستخدمها لعلاج مرضاه.. ألقى بجسده فوقها في تعب، لا يعلم سبب تلك الراحة التي بات يشعر بها حين يتمدد فوق أي أريكة.. لم يكن يستطيع العودة لمنزله وهو على تلك الحالة من السُكر.. أغمض عيناه بعد أن أصابه الإعياء ودارت رأسه بفعل الكحول.. أظلمت الدنيا من حوله تمامًا حين غاب عن الوعي وهو يتمتم هاذيًا:

"فريدة.. فريدة"..

***

(١١)

حـين دخلـت "ليـلى" مـن الشرفـة إلى غرفـة نومهـا كان الوقـت لا يـزال ليـلًا تقريبًـا، بالـكاد بـدأت بعـض العـمارات السـكنية تظهـر عـلى إسـتحياء مـن بـين الضبـاب.. ألقـت بجسـدها فـوق فراشـها في تعـب واضـح.. كانـت ليلتهـا كئيبـة مقبضـة، فارقهـا النـوم فيهـا بعـد أن سـيطرت عـلى عقلهـا مشـاعر الحـزن والكآبـة.. كانـت لا تتصـور أبـدًا كيـف تحولـت حياتهـا إلى مـا لم تكـن تتخيلـه عـلى الإطـلاق..

شـعور سـخيف بالسـأم، إختنـاق وضيـق شـديد في التنفـس كانـا يسـيطران عليهـا بصـورة مفزعـة.. غـادرت الفـراش بخطـوات بطيئـة بعـد أن أعياهـا طـول السـهر، وأرهقتهـا الأفـكار الحزينـة.. توجهـت إلى الحـمام ووقفـت أسـفل صنبـور الإسـتحمام الـذي انهمـر مـاؤه في قـوة وغـزارة، تلتمـس في سـخونته قليـل مـن الإسـترخاء.. إلا أن صـوت خريـر الميـاه وذلـك البخـار الكثيـف الـذي مـلأ الحـمام لم يفلحـا في إزالـة

آثـار السـهر والارهـاق.. فخرجـت مـن الحـمام تمامًـا كـما دخلـت إليـه، لم يتغـير شـئ مـن حالهـا..

جففـت جسـدها سريعًـا ثـم توجهـت إلى غرفتهـا.. نظـرت لملابسـها الملقـاة فـوق الفـراش في ضيـق ثـم ألقـت بهـا إلى الأرض.. كأنهـا تتخلـص مـن أغـلال غليظـة تقيـد حركتهـا وتكبـل روحهـا.. دسـت جسـدها العـاري أسـفل الغطـاء ثـم تكومـت عـلى جانبهـا متخـذة وضعيـة الجنـين كأنهـا تطلـب الحمايـة.. تمامًـا كطفـل يلتمـس ذلـك الشـعور البـرئ بالأمـان في رحـم أمـه.. إلا أن كل تلـك المحـاولات لم تفلـح في تخليصهـا مـن تلـك المشـاعر الكئيبـة التـي سـيطرت عـلى روحهـا..

"حبنا قدر يا أكرم، مفيش حاجة هتفرقنا إلا الموت"..

تـرددت في عقلهـا تلـك الجملـة التـي قالتهـا كثـيرًا فسـالت دموعهـا، ومعهـا بـدأت ذكرياتهـا تنسـاب مـن بئرهـا العميـق..

- مايصحش خروجك مع أكرم بالشكل ده.
- ليه يا ماما بتقولي كده؟!.
- كده وخلاص، من غير سبب.
- يبقى مش هبطل أخرج معاه.
- يـا بنتـي أنـا خايفـة عليـكي، ده واد متدلـع وأبـوه وأمـه متطلقـين.

- مش ذنبه انهم اتطلقوا.
- بلاش تعاندیني يا ليلى.
- بـلاش تجبرينـي انـتِ يـا ماما اني أختـار بينـك وبينـه.. لأني لـو اضطريـت للإختيـار، هاختـاره هـو.

ابتسـمت في حـزن حـين تذكـرت حديثهـا مـع أمهـا آنـذاك، لمعـت عيناهـا ببريـق خاطـف حـين داهمتهـا ذكرياتهـا مـرة أخـرى..

- انتَ كده بتخلينا نخسر كل حاجة.
- مش ممكن أخسرك.
- دي ثقة بالنفس، ولا غرور.
- دي ثقة فيكي.

دمعـت عيناهـا فـور تذكرهـا ذلـك الحديـث مـع "أكـرم"، كانـت قـد واجهتـه حينهـا بعلاقاتـه الغراميـة المتعـددة.. سـالت دموعهـا حـين ضربـت عقلهـا ذكـرى حاولـت وأدهـا كثـيرًا، لكنهـا فشـلت.. أغمضـت عينيهـا في ألم وهـي تسـترجع مـا حـدث كأنهـا تشـاهد فيلـمًا..

كان يحتضنهـا أسـفل صنبـور الإسـتحمام والمـاء الدافـئ ينسـاب عـلى جسـديهما حـين قالـت:

- مبروك، هتبقى أب.

تأملها "أكرم" لفترة ولم يرد ثم قبلها قبلة طويلة، لكن عيناه كانتا تلمعان بفرحة غامرة.. قالت وهي تمسح وجهها في صدره المبتل:

- لو ولد هنسميه إيه؟.

- بس أنا عاوز بنت.

- برضه هنسميها إيه؟.

- فريدة.

- فريدة؟!.

- أيوه على اسم ماما الله يرحمها.

دعكت كتفه وصدره برغوة الصابون ثم قالت بدلال:

- موافقة، بس على شرط.

- قولي يا ستي.

- لو ولد أنا اللي هسميه.

- وأنا موافق.

شدته إليها بقوة ثم قبلته، انزلق جسداهما المبللان برغوة الصابون فوق بعضهما إلى أسفل..

فتحت "ليلى" عينيها فجأة وانقطع شريط ذكرياتها السعيدة بقسوة.. اقشعر جلد جسدها بأكمله، كانت تلك العودة إلى الوراء مؤلمة بحق.. وككل مرة كانت تغمرها ذكرى تلك الفترة كانت تستحوذ عليها مشاعر وانفعالات لم تعلم كيف تسيطر عليها.. كانت تكتفي بسحب الغطاء فوق رأسها كأنها كانت تختبئ أسفله من تلك الذكريات..

كانت تشعر بحنين جارف نحو "أكرم"، لكن الهوة بينهما باتت بعيدة واتسعت حتى أمست شديدة العمق.. لم تعد تشعر بقدرتها على أن تخطو خطوة واحدة نحوه.. للحظة رأته نائمًا إلى جوارها أسفل الغطاء، ينظر لها وقد أضاء وجهه بتلك الإبتسامة التي تحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب.. خيل إليها أنها تحدثه عن كل شئ.. كل الذكريات والتفاصيل الصغيرة.. سرعان ما أفاقت حين تذكرت خيانته المتكررة لها.. قطبت جبينها في ضيق ثم تمتمت في حدة:

"لم يكن لديك الحق أبدًا في إفساد كل ما سعيت لبنائه"..

اعتدلت في الفراش ثم نظرت لساعة على الحائط أمامها، كانت عقاربها قد تجاوزت الخامسة صباحًا.. لم

يكن "أكرم" قد عاد للبيت بعد، أمسكت بهاتفها المحمول تطلبه.. لم يرد، بعد عدة محاولات ألقت بهاتفها على الفراش في ضيق.. تأففت في سخط ثم أمسكت بهاتفها تطلب رقمًا.. أتاها صوت "هشام" سريعًا جدًا قائلًا:

- انا كمان مش جايلي نوم.
- قابلني في عيادة أكرم دلوقتي.
- إيه؟!، عيادة أكرم!!.
- بعد نص ساعة، ماتتأخرش.

كان سيقول شيئًا ولكنها أنهت عبارتها ومعها المكالمة سريعًا ثم ارتدت ملابسها على عجل.. تحركت بسيارتها متجهة إلى الدقي.. نحو عيادة "أكرم"..

***

فتح "أكرم" عينيه في صعوبة، كان ذهنه مشوشًا من تأثير ليلة أمس الصاخبة.. نظر حوله فتذكر أنه قضى ليلته في العيادة، اعتدل جالسًا فوق الأريكة وهو يمسد جفنيه بأصابعه.. حين انجلت الرؤية أمامه اتسعت عيناه عن آخرهما من الدهشة لرؤية "ليلى" و"هشام" جالسان أمامه.. كانت "ليلى" جالسة خلف المكتب تقلب في أوراق

ملف "صباح"، بينما كان "هشام" جالسًا على المقعد المواجه له يرميه بنظرات متشككة..

- انتوا بتعملوا ايه هنا؟!.

قالها "أكرم" في صوت لايزال محملًا بأثار النعاس.. رمقته "ليلى" لفترة ثم قالت:

- انت إلى بتعمل ايه هنا؟، ليه ما روحتش على البيت؟.
- سهرت شوية، وما حبيتش اقلقك.
- سهرت ولا كنت مع واحدة من اللي تعرفهم.
- ليلى، أرجوكِ كفاية بقى.. انا مبقيتش.....

قاطعته في حدة:

- انت اللي كفاية، انا خلاص مبقيتش قادرة استحمل.
- يا ليلى أنا.....

تدخل "هشام" في الحديث فجأة:

- أكرم، من فضلك كفاية لحد كده.

رمقه "أكرم" في غيظ ثم قال بحدة:

- وانت مالك أصلًا، إيه اللي دخلك في الحديث.

رمته "ليلى" بنظرات مستفزة ثم قالت في هدوء:

- أنا اللي دخلته يا أكرم.

هم "أكرم" بالرد عليها لكنه تمالك أعصابه، توجه نحو مكتبه وأمسك علبة سجائره ثم أشعل واحدة منها.. نفث دخانها في عصبية وقال:

- ليه يا ليلى؟، ليه؟!.

أجابت "ليلى" ببرود غريب:

- علشان يخرجنا من المصيبة اللي احنا فيها.

رد "أكرم" بتعجب:

- مصيبة إيه اللي بتتكلمي عنها!!، أنا مش فاهم حاجة.

قام "هشام" واقفًا ثم تحرك في إتجاه الحمام، وقف عند بابه ثم أشار بيده للداخل وهو يقول مخاطبًا "أكرم":

- تعالى، اتفضل شوف بنفسك.

نظر "أكرم" صوب "ليلى" متسائلًا، لكنها أشاحت بوجهها عنه في غضب.. تحرك نحو الحمام ثم دخله

فصدرت عنه شهقة قوية، تراجع إلى الخلف خطوتين حتى كاد يقع.. استند على ذراع "هشام" وهو يصرخ:

- مش ممكن، إيه ده؟!.

كانت "صباح" عارية تمامًا، غارقة في حوض استحمامه.. ازرقت بشرتها وارتسمت على ملامح وجهها علامات ألم فظيع.. سقط "أكرم" على ركبتيه يبكي في ألم وهو يتمتم بصورة أقرب إلى الهذيان:

- ليه كده، أنا معملتش حاجة.

لكن "ليلى" صرخت في وجهه بقسوة:

- لأ، عملت.. انت قتلتها زي ما قتلت فريدة.

امتقع وجه "أكرم" واتسعت عيناه عن آخرهما ولم يرد.. أردفت "ليلى" تقول في ثورة عارمة:

- أيوه يا أكرم، انت قتلت بنتك الوحيدة.. غرقتها في البانيو، زي ما غرقت عشيقتك مراة البواب.

- مش معقول!.

- لأ معقول، انت قتلت فريدة وقتلتني معاها بخيانتك.

كانت الصدمة أكبر من قدرة عقله المضطرب من الأساس على الإحتمال، فردد "أكرم" في ذهول:

- يبقى أنا اللي قتلت صفاء.

لم ترحمه "ليلى" وأكملت صراخها حين قالت في قرف:

- طول عمرك ذوقك يقرف.

تدخل "هشام" في الحديث فقال متصنعًا الهدوء:

- مش مهم دلوقتي هو عمل إيه، إحنا لازم نبلغ البوليس حالًا.

كان "أكرم" يشعر أنه في حلم مريع، لم يجد لديه أدنى قدرة على الرد فالتزم الصمت.. سمع صوت "ليلى" يقول في حسم لم يعتده منها:

- لا، مش لازم البوليس يعرف حاجة.

نظر لها "هشام" في دهشة حقيقية ثم قال:

- يعني إيه؟، مش فاهم.

- إحنا لازم نتخلص من الجثة دي فورًا.

- إزاي يعني؟!.

- هتشيلوها انتوا الاتنين، وترموها في أي مكان بعيد.. صعب ان حد يتعرف عليها وهي بالشكل ده.

- لكن أنا مش....

- مفيش لكن يا هشام، علشان خاطري.

كان "أكرم" ما يزال مذهولًا من وقع ما جرى، لم يسترع انتباهه تلك الطريقة التي تخاطب "ليلى" بها "هشام".. لم يلفت نظره تلك السهولة التي إستجاب بها الأخير لطلبها الغريب..

أشارت لهما نحو سجادة كبيرة كانت تتوسط مدخل العيادة، أمسكت بملف "صباح" وتلك المفكرة البنية التي كان "أكرم" يدون فيها أفكاره ثم دستهما في حقيبة يدها.. تعاون "أكرم" و"هشام" على وضع "صباح" في منتصف السجادة ثم أحكموا لفها حول جثتها المبتلة.. كان الوقت مايزال مبكرًا وقد خلا الشارع من المارة تقريبًا، لم يجدوا أدني صعوبة في وضع السجادة الملفوفة في حقيبة سيارة "هشام" الفارهة.. انطلقوا بعدها نحو طريق مصر الاسكندرية الصحراوي.. وعند نقطة مهجورة ليست ببعيد عن مصحة "هشام" تعاون كلاهما مجددًا في حمل السجادة ودفنها في وسط الرمال بعيدًا عن أعين العابرين..

***

"لا بأس بالوصول إلى هنا بالنسبة لفتى نشأ في حارة قذرة بتلك القرية الفقيرة".. حدث "هشام" نفسه بذلك وهو يقف في شرفة بيته بالطابق العشرين، الواقعة بأحد الأبراج الشاهقة في حي المعادي والمطلة على نيل القاهرة الساحر.. كان الجو صافيًا تشوبه ريح باردة، للمرة الأولى منذ أسبوع أضاءت شمس ساطعة السماء..

وعلى الرغم من صفاء الجو إلا أن عقله رفض أن يصفو.. داعبت ذهنه ذكريات طفولته البائسة، كانت طفولته حقًا شاقة.. طفولة تتسم بالفقر وضنك العيش.. حياة معدمة، كان وأسرته يأكلون في الغالب مما يجود به عليهم الأخرين.. الناس الأكابر كما كان يسمع أمه تسميهم دومًا..

مات أبوه منذ زمن بعيد وتركه طفل صغير، ترك أمه وحيدة ترعى خمسة أبناء.. لم تكن حياتها سهلة أبدًا بعد رحيل أبيه، لكنها تدبرت أمرها بمفردها لتربي أبنائها قدر استطاعتها.. عملت بجهد كبير، عملت أحيانًا عملين وثلاثة لتوفر لهم عيشة بالكاد تفي بحاجاتهم الضرورية.. خادمة، دلالة وحتى نائحة في أوقات الموت.. لم تنفر أبدًا من عمل، تحملت في صبر الإهانات المتكررة التي نالتها من جراء تلك الأعمال.. ولأنها كانت غريبة عن قرية

أبيهم، لم يكن لديها من يمكنها الإعتماد عليه.. لم يكن في بيتهم غسالة أو ثلاجة، لكنهم كانوا يأكلون دومًا ما يشبعهم.. ولم يكن ما يشبعهم كثيرًا..

كان "هشام" هو الوحيد بين إخوته الذي نجح في تعليمه، تسرب الباقون في مراحل التعليم المختلفة.. كان يشعر أن التعليم هو طوق نجاته الأخير في مواجهة خضم أمواج الحياة القاسية..

وبالرغم من كل الشقاء الذي كانت تكابده أمه، لم يرها قط تعتني بنفسها كأنثى أو حتى تستمتع ببعض المتع البسيطة.. كان همها الوحيد هو تربية أبنائها، على الرغم من افتقارها للتعليم إلا أنها حرصت على بذل كل طاقتها ليواصل تعليمه حين وجدت لديه ميلًا وتفوقًا.. حقًا كانت تفتقر إلى العلم، لكنها كانت تمتلك قلبًا كبيرًا.. حب هائل دائم غير مشروط.. كانت تردد على سمعه دومًا:

"سوف تكون شخصًا عظيمًا في يوم من الأيام، تذكر ذلك دائمًا.. لا يمكن أن يضيع عمري هباءًا"..

جفف دموعه التي تساقطت حين تذكر ما كانت تقوله.. دخل من الشرفة ملقيًا بجسده فوق كرسيه المفضل، كرسي "الولد الكسول" الذي كلفه شراءه مبلغًا

يعادل قيمة شراء غرفة طعام لأسرة متوسطة الدخل.. فرد ساقيه على الكرسي ومعها تمددت ذكرياته حتى استحوذت على عقله كله..

كانت أمه هي شمسه التي يدور في فلكها، تنير حياته بأكملها خلال سنوات الصبا والشباب.. كانت هي حارسه الذي يحرسه ليلًا من فزع الكوابيس، طبيبه الذي يداويه في المرض.. كانت ملاكه الذي يباركه بالدعاء، تترك له القليل من المال وتواسيه بكلمات رقيقة حين يذكره أولاد القرية بيتمه..

كانت أمه كل شئ في حياته، قبل أن يذهب إلى الجامعة.. حينها ظهر بينهما حاجز غريب، بدأ يفرق بينهما شيئًا فشيئًا..

اكتشف عالم القاهرة الساحر، تلك العمارات السكنية الفاخرة والشوارع الواسعة.. لمرات عديدة كان زملاؤه يدعونه لبيوتهم فبدأ يشعر بالخجل من أمه.. لم يكن يتودد إليه سوى الأثرياء طمعًا في أن يمنحهم شرحًا لما يستعصي على عقولهم الكسولة، على أقل تقدير أن يعاونهم بإجابة ولو مختصرة في الإمتحانات.. كان تفوقه سببًا في ازدياد شعوره بالنقمة على أمه.. بدأ يخجل من لهجتها الريفية وعاداتها التي أصبح يسميها بالمتخلفة..

لأول مرة في حياته شعر أن كل هذا الحب الذي كانت تحوطه به مزعج، بدأ يتحرر منه تدريجيًا..

بعد تخرجه بتقدير جيد جدًا وتعيينه في هيئة التدريس بالجامعة لم يسهم ذلك في تحسين علاقته بأمه.. بل على العكس زاد من حنقه عليها وخجله منها.. أصبح خجله مضاعفًا، منها ومن اخوته، كان يرى أنه من غير اللائق أن يكون أخوته غير متعلمين.. ركز كل جهده لارتقاء سلم النجاح، لكن جانبًا صغيرًا في نفسه كان يلومه ويؤنبه على الدوام.. يحمله الذنب ويخبره أن هذه السيدة لا تحتاج لماله فقط، لكنها تحتاج إلى حبه ورعايته أكثر..

وفي أحد تلك الأيام جاءه اتصال من أخ له يخبره بوفاتها، ينبئه أنها أوصته قبيل موتها أن يبلغه السلام.. عاوده آنذاك ذلك الحب الطفولي الذي كان يحس به معها.. عضه الندم وتسلطت عليه سياط كل اللحظات التي كان فيها جاحدًا تجلده في قسوة..

ومنذ ذلك الحين لا يمر يوم دون أن يفكر فيها، أصبح يواسي نفسه بأن كل نجاح يحققه هو في الأصل نجاح لها.. مكافأة لها على شقائها فيما مضى.. وكلما صادف في الطريق إمرأة منهكة تعبة ترتدي ملابس بالية تراءت له صورة أمه فيبكي.. يأسف لأن الأوان كان قد فات.. فكل

شـئ وأي شـئ كان يفعلـه لإحيـاء ذكراهـا كان لا يمكـن أن يحـل أبـدًا محـل الوقـت الـذي لم يقضـه معهـا، عندمـا كانـت لا تـزال حيـة..

قـام "هشـام" واقفًـا مـن فوق الكـرسي، محـاولًا إبعـاد تلك الأفـكار التـي كانـت تجعلـه ضعيفًـا جـدًا.. نظـر في سـاعة يـده السـويسرية الصنـع، كانـت عقاربهـا تشـير للعـاشرة صباحًـا.. توجـه إلى غرفتـه ليسـتعد للقـاء "ليـلى" و"أكـرم"..

نظـر إلى خزانـة ملابسـه المتخمـة عـن أخرهـا بأغـلى المـاركات وأشـهرها، إختـار بذلـة تظهـر قوامـه ثـم نظـر نحـو المـرآة الكبـيرة التـي تتوسـط خزانـة الملابـس وتمتـم:

"لم يتبـق لي سـوى حلـم واحـد فقـط، لـن أتنـازل عنـه أبـدًا.. أنـت يـا ليـلى"..

***

(٢١)

جلـس "معتـز" خلـف مكتبـه يفكر بعمـق في تلـك القضية الشـائكة التـي بـات يظـن أنهـا سـتنهي مسـتقبل عملـه في المباحـث.. كان هاتفـه المحمـول لم يتوقـف عـن الرنـين منـذ أن تناثـرت الأخبـار بأمـر إقتحـام شـقة "صفـاء".. كل المكالمـات كان مضمونهـا واحـد، خلاصتـه أن مسـتقبله متوقـف عـلى حـل غمـوض هـذه القضيـة.. دار بـصره في حـيرة مـا بـين ملـف القضيـة وتلـك المطفـأة التـي إمتـلأت عـن أخرهـا بأعقـاب السـجائر.. تأفـف في ضيـق وهـو يفـض غـلاف علبتـه الثانيـة منـذ فجـر اليـوم.. أشـعل سـيجارته ثـم نفـث دخانهـا بحـدة وصـاح عـلى أحـد العسـاكر يطلـب كوبًـا مـن القهـوة السـادة..

دخل "عمرو" إلى الغرفة فجأة وهو يقول:

- يـاسر شـعبان الدسـوقي، زوج القتيلـة التانيـة بـره يـا باشـا.

- خليه يدخل بسرعة.

إعتدل في جلسته، تظاهر بإجراء تلك المكالمة الوهمية كعادته.. دخل "ياسر الدسوقي" إلى الغرفة بخطوات مضطربة، هيئته وملبسه تدلان على تواضع مستوى معيشته.. طويلًا عريضًا، ممتلئ الجسم.. له رأس كبير يرتكز على رقبة قصيرة غليظة، تحس أن رأسه بلا رقبة.. وجهه حليق بلا إهتمام، أنفه مفطوس وشفتاه غليظتان.. شعره أسود غزير يغطي جبهته، يكاد يتلامس مع حاجبيه الكثيفين المتلاصقين.. ذراعاه طويلتان متدليتان إلى أسفل، تشعر أنهما شارفتا على تجاوز ركبتيه..

كل ملامحه وأوصافه تكاد تكون متطابقة بالضبط مع ما درسه "معتز" في كلية الشرطة من نظرية علم الإجرام الشهيرة للعالم الإيطالي "لومبروزو".. تشعر أنه لا يفكر كما يفكر الناس، لا يشغل باله بما يشغل بالهم..

تسمرت عينا "معتز" حين وجد بصحبة "ياسر" طفل صغير، خمن على الفور أنه ابن القتيلة.. كاد أن يفقد تماسكه بعد أن ذكرته رؤيته لهذا الصغير بابنه "أدهم".. أنهى مكالمته الزائفة ثم نهض مصافحًا "ياسر"، تعجب من اللين والرقة اللذان ظهرا في يد الأخير عند مصافحته..

أشار له بالجلوس ثم أخبر "عمرو" أن يذهب بالصغير إلى غرفة أخرى، لكن "ياسر" انتفض واقفًا وقال في ذعر:

- محمود مش هيبعد عني لحظة واحدة.

رمقه "معتز" بعين فاحصة ثم قال بهدوء:

- ما تقلقلش يا أستاذ ياسر، إحنا كنا هنجيبله عصير أو أي حاجة.. في كلام هنقوله ماينفعش ولد في سنه يسمعه.

- اتفضل سيادتك قول كل حاجة، احنا مابنخبيش حاجة على ابننا.

- براحتك يا عم ياسر.

أنهى عبارته الأخيرة ثم تعمد التزام الصمت فترة للضغط على أعصاب "ياسر"، إستغل هذه الفترة في إشعال سيجارة جديدة.. ثم نظر نحوه من بين دوائر دخانها المتراقص وسأله:

- هي المرحومة كانت إيه علاقتها بصفاء عبدالحميد؟.

- معرفش.

- يعني إيه متعرفش؟.

- يعني معرفش.

- انت مش جوزها يا عم ياسر ولا إيه؟.

تغاضى "ياسر" عن لهجة "معتز" المستفزة، نظر بعينيه إلى الأرض ثم قال:

- أيوه جوزها لكن معرفش حاجة عنها.

رمقه "معتز" بعين خبيرة ثم قال متسائلًا:

- إزاي يعني؟!، ممكن توضحلي.

تنهد "ياسر" طويلًا كأنه يزيح حملًا ثقيلًا من فوق صدره ثم قال:

- أنا وإيمان كنا بنشتغل في سنترال المنشية، كمان كنا جيران في باكوس.. إيمان طول عمرها حلوة وشقية، كل شباب المنطقة كانوا حاطين عينهم عليها.. لكن هي ماكانش في حد يملى عينها أبدًا.

صمت "ياسر" فجأة، حاول "معتز" تشجيعه على إستكمال الحديث فقال ملطفًا من حدة التوتر:

- هاتلنا طقم ليمون يا عمرو، مش معقولة الكابتن محمود يجيلنا وما نقومش معاه بالواجب.

غادر "عمرو" على الفور منفذًا تعليماته على حين التفت هو نحو "ياسر" قائلًا:

- وبعدين يا أستاذ ياسر، كمل من فضلك.

رماه "ياسر" بنظرة حزينة ثم شرد ببصره جهة اليمين كأنه يتذكر أحداثًا ماضية:

- كنت دايمًا بمشي وراها وهي رايحة السنترال، حتى لما كانت بتروح برضه كنت بمشي وراها.. كنا بنركب مع بعض الترام.. هي كانت شايفاني، لكنها ماكانتش بتعترض على اللي بعمله.. كانت فرحانه اني بمشي وراها.. هي قالت لي أنها كانت حاسة اني البودي جارد بتاعها...

- وبعدين..

- في يوم واحنا مروحين لقيتها بتعيط، كانت حالتها صعبة قوي.. مفدرتش أشوفها في الحالة دي، سألتها فقالت لي ان واحد من ولاد المنطقة عشمها بالجواز وبعدين ضحك عليها..

صمت "ياسر" مجددًا فأخرج "معتز" سيجارة من علبته وأعطاها له، شكره "ياسر" ثم قال بعد أن سحب نفسًا طويلًا:

- اليوم ده كان أول مرة أخرج معاها، رحنا عند بير مسعود.. نامت على كتفي وحكتلي على كل حاجة..

أمها وأبوها، اخواتها.. كل حاجة.. قالت لي انها خايفة لو عرفوا اللي حصلها يموتوها.. قلت لها اني مستعد اتجوزها.. فرحت قوي وباستني في خدي..

سالت دموعه وهو يمسح بيده على خده فحشه "معتز" على الإكمال بعض أن منحه منديلًا ورقيًا.. جفف دموعه ثم قال:

- اتجوزنا، وفي اليوم الأول عرفت انها مش بنت بنوت.. هي صحيح ما حكتليش الحكاية دي، لكن أنا قلت أكيد الندل اللي ضحك عليها هو السبب.. بعد شهر واحد عرفنا انها حامل..

- منك؟.

- مش مهم، المهم انها كانت حامل.. قضينا احلى فترة في حياتنا لغاية لما جالنا محمود.. من ساعتها حياتنا اتبدلت.

- إزاي؟.

- احنا اتجوزنا في شقة أمي في باكوس، ودي منطقة شعبية زي ما سيادتك عارف.. إيمان ماكانش عاجبها العيشة في المنطقة، الله يرحمها كان طموحها كبير جدًا.

- طموحها كبير، قصدك إيه؟.

- قصدي انها كانت عاوزة تسكن على الكورنيش وتركب عربيات وتسهر، وأنا طبعًا موظف على قد حالي.. فوجئت بيها في يوم بتقول لي انها استقالت من السنترال، هتشتغل مع رجل أعمال عنده شركة شحن بحري.. وافقت لما لقيت المرتب كويس وممكن يساعد في مصروف البيت.. بدأت تتأخر وألاحظ الفلوس الكتير اللي بقت في ايدها.. بعد فترة قالت لي انها مش هتقدر تكمل معايا.

- كانت عاوزة تطلق؟.

- لا بالعكس، هي بس كانت عاوزة تعيش لوحدها.

- وبعدين؟.

- أنا رفضت طبعًا، بدأت الخلافات تزيد بينا.. ومعاها بدأت هداياها اللي بتيجي البيت تزيد اكتر.. مرة تليفزيون، ومرة دش.. مرة خاتم ذهب ومرة سلسلة.. بدأت الناس تتكلم علينا في المنطقة.. في الآخر وافقت على طلبها، وهي قالت انها خلاص مش هتعيش في اسكندرية.. قالت لي انها جايلها شغل مهم قوي في القاهرة.. ومن ساعتها واحنا منعرفش عنها حاجة،

كل كام شهر تيجي تشوف محمود وتسيب قرشين.. وبعدين تمشي.

حانت من "معتز" نظرة خاطفة نحو الصغير "محمود"، لمحها "ياسر" فقال على الفور:

- حتى لو مش ابني يا باشا، فأنا حاسس انه ابني.. انا حاسس ان ربنا بعتني للواد ده علشان أربيه بدل أبوه وأمه.

شعر "معتز" بغصة في حلقه من حكاية "ياسر"، شعر أنه قد ظلمه حين حكم عليه من مظهره.. تمالك نفسه سريعًا ثم عاد مجددًا يسأله:

- طيب يا عم ياسر، مسمعتش ان المرحومة كانت تعبانة أو بتتعالج من حاجة.

- لا يا باشا، على حد علمي كانت صحتها كويسة.

صمت لوهلة ثم قال كأنه تذكر شيئًا:

- لكن هي مرة قالت لي ان أعصابها تعبانة من الشغل، وانها بتروح تعمل جلسات نفسية.

انتفض "معتز" في مقعده فقاطعه في لهفة:

- عند الدكتور هشام وهدان، مش كده؟.

- لا ياباشا، كانت مرة نسيت عندنا روشتة مكتوب عليها اسم الدكتور أكرم رشدي.

***

أدارت "ليلى" مشغل الإسطوانات فانسابت موسيقى رائقة في فضاء الصالة.. كانت تعشق هذه الأغنية بكلماتها التي تبث فيها دومًا حالة غريبة من النشوة، لم تفلح أبدًا في أن تجد لها سببًا.. انسابت في الأجواء دندنة صوت "عبدالوهاب" الدافئ، يتغنى بكلمات أمير الشعراء "أحمد شوقي":

مُضناك هواه مرقده.. وبكاه ورحم عوده

حيران القلب معذبه.. مقروح الجفن مسهده

تحركت نحو المطبخ لتعد فنجانًا من القهوة، وهي تردد كلمات الأغنية في انسجام تام.. كان باب غرفة النوم مواربًا فمالت بجزعها جانبًا تختلس النظر إلى "أكرم".. لمحت أنه مغمض العينين وقد غمرت وجهه مسحة من الحزن الدفين.. تمامًا كما كانت تنظر إليه في الماضي وهو نائم.. خفق قلبها بشدة، فرغم كل شئ كانت دومًا مولعة به، مجنونة بعشقه.. أغمضت عينيها وهي تغلق عليه باب الغرفة..

دخلت إلى المطبخ دون أن تعرف سببًا واضحًا لهيامها به، لم تفهم ذلك أبدًا.. كان بينها وبينه نوع من الترابط الروحي، صبت قهوتها وهي تبتسم حين تذكرت ذلك التناقض الغريب في شخصيته.. ربما كان ذلك ما دفعها للتعلق به من الأساس.. هزت رأسها وهي تتذوق قهوتها ثم تمتمت تحدث نفسها:

"لا يهم، المهم أني أعرفه كما لم يعرفه أحد غيري"..

جلست على مقعد وثير في الصالة بعد أن أمسكت في يدها بالملف الأخضر ومفكرة "أكرم" الشخصية، اللتان أخذتهما من عيادته صباح اليوم.. تفحصت أوراق الملف فوجدت بعض المعلومات عن "صباح"، قليل من المعلومات الطبية عن حالتها وتحليل لشخصيتها مكتوب بخط "أكرم" المنمق.. ألقت بالملف على أريكة مجاورة بعصبية شديدة ثم أمسكت بالمفكرة.. تناولت رشفة من قهوتها ثم شرعت في قراءة ما دونه "أكرم" بها.. أصابها وجوم بعد قراءتها لبضعة أسطر.. لمعت الدموع في عينيها، لكنها سرعان ما سيطرت على نفسها وأكملت القراءة..

"لا أعلم حقًا ما الذي دفعني إلى الإقدام على الإمساك بهذا القلم، فأنا كما تعلمين لا أحب كتابة الرسائل.. لأنها لا تحمل لي سوى معنى واحد فقط.. الفراق.. لكنني

مشتاق إليك.. لا قدرة لدي على تخيل فراقك، لا معنى للحياة عندي بدونك..

لكن.. لعلها الرغبة في البوح ببعض الأشياء التي عجزت عن قولها في مواجهتك.. أو ربما هي تلك الظلمة والوحدة اللتان باتتا تحاصراني حتى كادتا تذهبان بما بقي لي من عمر معدود..

على كل حال لم يعد ذلك يهم كثيرًا.. فأنا لم أشعر بالسعادة سوى معك، أتمنى أن نعود كما كنا.. أعشق قدرتك على رؤيتي من الداخل، على فهمي دون أن أحتاج إلى الكلام.."

مرتجفة ومضطربة رفعت "ليلى" عينيها الدامعتين عن المفكرة، توقف عقلها عن التفكير تمامًا.. عاد "أكرم" يسيطر عليها بقوة، تحرك مرة أخرى من ذلك الركن القصي في رأسها ليستحوذ على كيانها بأكمله.. قامت من مكانها واتجهت نحو النافذة التي تطل على الشارع، ترقب الحياة من خلف زجاجها.. كان الطقس قد بدأ يغيم ولاحت السحب الرمادية في الأفق، سرعان ما انهمر مطر غزير.. عادت إلى مكانها فوق المقعد ومسحت دموعها بكفها.. تساءلت عما حل به، أيرغب حقًا فيها لهذه الدرجة؟..

أمسكت بالمفكرة من جديد وشرعت في استكمال القراءة.. ولا يتردد في عقلها سوى كلمة واحدة.. "أكرم".

"كم اشتقت لضمك من جديد، لكن ما يعزيني هو طيفك الذي لا يغادرني لحظة.. لو علمت مدى لهفتي على إحاطتك بذراعي كما كنا نفعل لربما غفرت لي كل شئ..

أعلم أني أذيتك كثيرًا، لكني لم أستطع التوقف.. كنت أرى تلك النظرة الحزينة اللائمة في عينيك، لا أجرؤ على مواجتها ولا أجد تفسيرًا لما فعلته.. لم أعد أعرف عن أي شئ أطلب الغفران، فكل شئ في حياتي لم يكن إلا خطية..

لم يعد بوسعي أن أخفي عنك شئ بعد أن كَلَّ عقلي ووهن من التفكير.. لم يبق أمامي سوى الإعتراف أمامك، حتى وإن كان على أوراق هذه المفكرة..

أنا مريض.. قد تتعجبين من كلماتي هذه.. لكنها الحقيقة التي لا أدري كيف أو متى تشكلت حتى باتت واقعًا ملموسًا، لا أقوى على التغلب عليه أو حتى على أقل تقدير تجاهله.. وأكثر ما يخيفني هو أن تنتهي حياتنا معًا..

فقبلك كانت الحياة عادية، أما معك فقد أصبحت حياتي حقيقية..

فأنت وحدك من ملكت قلبي.."

انتبهت على صوت جرس الباب، فتحت على الفور كأنها تعرف الطارق..

- مساء الخير يافندم، يا ترى الدكتور أكرم موجود؟.

تسمرت في مكانها بعد أن فوجئت بهذا الغريب الذي يسأل عن "أكرم"، لكنها تمالكت نفسها وقالت بهدوء:

- مين حضرتك؟

- المقدم معتز الشامي، مباحث القاهرة.

ارتجفت عينيها قليلًا لكنها أفسحت له المجال سامحة له بالدخول.. أوقفت مشغل الإسطوانات، ومعه توقف صوت "عبدالوهاب".. جال "معتز" ببصره في أنحاء الشقة كأن عينه المدربة تأبى التوقف عن آداء عملها ولو لفترة قصيرة.. إنتبه على صوت "ليلى" تقول في رصانة بعد أن أشارت له بالجلوس على أحد المقاعد الوثيرة:

- أي خدمة يا سيادة المقدم؟

تأمل "معتز" مظهرها بعينه المتفحصة، لاحظ تورمًا واحمرارًا في جفنيها.. ارجع سببه لقلة نومها أو كثرة بكاءها، لكنه تجاهل ملاحظاته حين جلس وسألها:

- الحقيقة إحنا كنا عاوزين ناخد رأي الدكتور في قضية مهمة .

- تقصد قضية صفاء عبدالحميد؟.

ارتسمت على شفتي "معتز" ابتسامة خبيثة ثم قال في هدوء:

- مش بالضبط، لكن موضوع متعلق بالقضية.

قالت "ليلى" على الفور:

- يبقى لازم حضرتك تقصد موضوع قتل إيمان الشهاوي.

لمعت عينا "معتز" بقوة واعتدل في جلسته ثم قال في هدوء شديد:

- وحضرتك عرفتي منين؟.

- مش فاهمة قصد حضرتك؟.

- عرفتي منين انها اتقتلت؟.

توترت عضلات عينها لكنها سرعان ما سيطرت على أعصابها وقالت:

- من الجرايد طبعًا، هم وراهم حاجة غير الموضوعات دي.

- بس الجرايد ما نشرتش حاجة عن موضوع إيمان.

- أيوه ماهو.....

أنقذها صوت جرس الباب فقامت مسرعة وهي تمتم بعبارات الإعتذار، كان "هشام وهدان" هو الطارق.. دخل على الفور للصالة، لكنه تسمر لوهلة حين وقعت عيناه على "معتز".. ارتسمت على ملامح الأخير ابتسامة وقال بلهجة مرحة:

- ده الحبايب كلهم هنا.

- أهلًا سيادة المقدم.

رد "هشام" بطريقة مقتضبة، وحانت منه نظرة سريعة نحو "ليلى" التي قالت:

- سيادة المقدم كان عاوز ياخد رأي أكرم في قضية صفاء عبدالحميد.

- قصدك في قتل إيمان الشهاوي.

قالها "معتز" بنبرة تحمل الكثير من المعان في باطنها، رمقه "هشام" في حدة ثم قال متصنعًا الهدوء:

- أؤمر يا معتز بيه، ممكن نساعدك إزاي؟.

- أُمال فين الدكتور أكرم؟، هو مش موجود ولا إيه؟!.

قالها "معتز" وهو يفتش بنظره في أنحاء المكان، قالت "ليلى" على الفور:

- موجود طبعًا، هو بس تعبان ونايم شوية. تحب نصحيه لحضرتك؟.

شرع "معتز" في الإجابة لكن رنين هاتفه المحمول قاطعه، رد على الفور حينما رأى إسم "عمرو" يلمع فوق الشاشة.. جاءه صوته يقول بنبرة سريعة:

- باشا، داليا اتصلت وبتقول لحضرتك انها هتكون في مكتبك خلال نص ساعة.

- تمام، حالًا هكون عندك.

أنهى المكالمة ثم انتصب واقفًا، رمى نظرات ثاقبة نحو "ليلى" و"هشام" حين قال بلهجة ذات مغزى:

- هنتقابل تاني، قريب جدًا.

إنصرف مغادرًا بعد أن تركهما خلفه غارقين في بحر من التساؤلات ودوامات من القلق.

***

(٣١)

- هنعمل إيه دلوقتي؟.

قالتها "ليلى" حين أخذت تتمشى في الصالة بخطوات عصبية، تأملها "هشام" لوهلة ثم قال دون تردد:

- هنعمل اللي اتفقنا عليه طبعًا.

- طيب والضابط، هنعمل معاه إيه؟.

- عادي، سيبك منه.. كل حاجة هتمشي زي الخطة بتاعتنا بالضبط.

صمت قليلًا ثم قال بعد أن لاحظ الارتباك الذي بدا عليها:

- مش انتِ بتدي لأكرم الدواء زي ما اتفقنا؟.

- أيوه.

- يعني بياخده بانتظام وغيرتي العلبة زي ما قلت لك؟.

قالت بنفاذ صبر:

- قلت لك أيوه.

- خلاص، يبقى مفيش داعي للقلق.. مش ممكن أكرم يشك في حاجة، كلها أيام أو ساعات ونخلص من كل حاجة.

أنهى عبارته الأخيرة ثم اقترب منها يحاول احتضانها، لكنها تملصت مبتعدة عنه بسرعة ثم قالت:

- من فضلك يا هشام، الوقت مش مناسب.

أومأ "هشام" برأسه وأطرق بنظره إلى الأرض، قال بعد فترة من الصمت:

- أكرم لسه نايم؟.

لم تجبه "ليلى" واكتفت بإيماءة خفيفة من رأسها، فقال بعد أن فقد الأمل في إستمالتها:

- طيب أنا هطلع على العيادة دلوقتي، هكلمك بالليل علشان ننفذ باقي الإتفاق.

ألقت بجسدها المنهك على أحد مقاعد الصالة الوثيرة بعد أن إنصرف "هشام".. تناولت مفكرة "أكرم" تحاول

استكمال قراءة ما دونه فيها، لكنها أمسكت برأسها حين عصف بها صداع فظيع.. كان عقلها يواجه معركة طاحنة، تتنازعه أفكار كثيرة متضاربة بعد أن قرأت رسائل "أكرم"..

توجهت نحو غرفة النوم مترنحة بعد أن دار رأسها من شدة الألم، كان "أكرم" ما يزال نائمًا يكسو وجهه الحزن.. أمسكت بحقيبة يدها تفتش فيها، توترت أعصابها حين أخرجت علبة دواء.. جلست على حافة الفراش تتأمل جسد "أكرم" الممدد، أخذت تجيل بصرها بينه وبين المفكرة.. فتحت علبة الدواء تهم أن تأخذ منها حبة، لكنها سرعان ما ألقت بالعلبة بعيدًا على الأرض.. كانت قد امتنعت عن تناول الدواء الذي وصفه لها "أكرم" منذ فترة طويلة، قبل حادث وفاة "فريدة" بقليل..

- ما سمعتكيش وانتي داخلة!!.

غمغم "أكرم" وهو يفتح عينيه بوهن بعد أن أزعجه صوت سقوط علبة الدواء على أرضية الغرفة.. تأملته "ليلى" فترة ثم قالت:

- عامل إيه دلوقتي؟.

أومأ "أكرم" برأسه في بطء ولم يرد، أمسك برأسه حين حاول النهوض فدارت الدنيا من حوله.. سألته "ليلى":

- أعملك قهوة؟.

هز "أكرم" رأسه نافيًا ثم تمتم بحروف مقتضبة:

- متشكر.

كان الإرتباك يفرد أشرعته عليهما، كانا كحبيبين يخشى كلًا منهما الإفصاح عن مشاعره للآخر.. قامت تغادر الغرفة، لكن "أكرم" لمح مفكرته الخاصة في قبضتها فقال على الفور:

- قرأتي كل اللي فيها؟.

توقفت عن الحركة ثم التفتت نحوه، نظرت في صفحة عينيه.. رأت فيهما حياتها بأكملها، تجسدت أمامها كل ذكرياتهما الماضية من جديد.. كادت أن تبكي، لكنها تمالكت نفسها وقالت:

- ما كنتش أعرف انك بتكتب حلو.

إبتسم "أكرم" حين أجابته، وقال بنبرة حانية:

- بقالنا كتير ما اتكلمناش مع بعض، خليكي جنبي.. من فضلك.

توترت عضلات وجهها، وبدا عليها أنها تقاوم شيئًا.. لكنها في نهاية الأمر استجابت، وعادت إلى مكانها على

حافة الفراش تلتزم الصمت.. قال محاولًا كسر حاجز الصمت الذي طال بينهما:

- عمر الحياة ما هيكون لها معنى لو مقدرناش نعيشها مع اللي بنحبهم.

امتلأت عيناها بالدموع، لكنها حدقت فيه بغضب ولم ترد.. فاستطرد قائلًا:

- أنا مفيش حاجة عندي أهم منك، أنا طول عمري.....

قاطعته في حدة، ومع كلماتها انهمرت دموعها بغزارة:

- أنا عمري ما حلمت اني اتجوز شخص خالي من العيوب، كل حاجة ممكن تتصلح.. لو كنا عاوزين نصلحها.

التزم "أكرم" الصمت، فقذفت بالمفكرة نحوه في عصبية واضحة ثم أردفت بنبرة غاضبة:

- ليه؟، ليه ما صارحتنيش قبل كده بمشاعرك.. كان ممكن تواجهني، تقول لي على مشاكلك.. كان ممكن أحس انك على الأقل بتثق فيا.

- مش ممكن تفهمي، أنا حياتي كانت جحيم.. عيلتي كانوا.....

لم تدعه يكمل فقاطعته بصوت خرج مبحوحًا من بين دموعها:

- مين قالك، أنا عارفه ظروفك كويس.. عارفه قد إيه كان صعب عليك انك تبعد عن أمك وأبوك، لكن أنا مش هما.. أنا بحبك يا أكرم.

أنكفأت بوجهها فوق الفراش تنتحب بحرقة، بقي "أكرم" ينظر لها من بين عينيه اللتان تلألأت فيهما الدموع.. بعد فترة من الصمت خرج صوته بطيئًا هادئًا بصورة لافتة حين قال:

- بعد لما حصل الإنفصال بينهم، فضلت مع أمي فترة.. في شقة الدقي، لكن ما قدرتش استحمل كتير.. أمي كانت ست متحررة، خروج وسهر وحفلات.. وفي يوم كنت نايم، سمعت حركة بره أوضتي.. خفت، صور لي خيال الأطفال ان ممكن يكون حرامي عرف اننا لوحدنا أنا وهي فقرر انه يسرقنا أو يخلص علينا.. خرجت من الأوضة وأنا بارتعش من الخوف، لكن خوفي عليها كان أكبر.. وصلت لباب أوضتها لقيتها منورة، والباب كان متوارب.. سمعت صوت أمي بتصرخ، حاولت أمد إيدي أفتح الباب لكن خوفي غلبني.. قلت أبص الأول، لكن.....

صمت "أكرم" تمامًا وبدا شاردًا، كأن لسانه يعجز عن النطق.. دنت منه "ليلى" ومسحت بكفها على خده.. كان وجهه شاحبًا للغاية، باردًا برودة الأموات.. احتضنت رأسه في صدرها فتنهد تنهيدة طويلة، إنهارت مقاومته وأجهش بالبكاء.. ربتت على رأسه ثم طبعت قبلة حانية عليها حين سمعته يقول بصوت متهدج:

- شفتها وهي بتصرخ، لكن كانت بتصرخ من النشوة.. لسه صورتها وهي نايمه في حضن رجل غريب مطبوعة في عقلي كأنها كانت امبارح، كان بيعاملها بمنتهى العنف والقسوة.. لكنها كانت مبسوطة جدًا من اللي بيعمله معاها.. في اليوم ده أنا فاكر كويس اني فضلت واقف مكاني مش قادر اتحرك، زي المشلول بالضبط.. شفت كل حاجة، اتفرجت عليهم لغاية لما خلصوا.. ما خدتش بالي غير لما لقيته قام من عليها، فتح الباب وهو لسه عريان.. بص عليا شوية وضحك لي ضحكة مش قادر انساها، وقال لي إيه اللي مصحيك لحد دلوقتي يا حمادة.. وبعدين بص ناحية أمي وقالها ده عاوز يغير هدومه يا فريدة.. نظرت ناحية أمي لقيتها متكومة في السرير بتحاول تغطي

جسـمها وبتعيـط، سـاعتها بـس اخـدت بـالي اني بليـت بنطلـوني مـن غـير مـا احـس.

نظـرت ليـلى نحـوه في شـفقة بالغـة.. كانـت رؤيتـه عـلى تلـك الحالـة ترغمهـا عـلى تذكـر ذلـك الفتـي الـذي تحفـظ كل تفاصيلـه عـن ظهـر قلـب، صاحـب الخمسـة عـشر عامًـا الـذي لم تسـتطع مقاومتـه أبـدًا.. نَحَّـتْ غضبهـا منـه جانبًـا، رفعـت رأسـه تنظـر إلى عينيـه.. كانـت عينـاه غائمتـان بالدمـوع، طبعـت قبلـة حانيـة عـلى جبهتـه ثـم أنامتـه فـوق الفـراش واندسـت في حضنـه الـذي طالمـا منحهـا الـدفء والأمـان.. كانـت تعلـم أنـه لا يجـب أن تقسـو عليـه الآن، فبعـد أن عرفـت منـه كل شـئ لم يعـد بوسـعها أن تلومـه.. أصبحـت كل فعالـه مـبررة أمامهـا حتـى وإن كانـت قـد سـببت لهـا الكثـير مـن الألم..

أغمضـت عينيهـا، تمنـت لـو امتـد الزمـن بهـذه اللحظـة ليصبـح أبديًـا.. داعبـت بلطـف صـدره فتحسـس بكفـه خدهـا، مـدت ذراعهـا حولـه تحتضنـه بقـوة كأنهـا تخـشى أن تفقـده مـرة أخـرى.. التفـت بوجهـه نحوهـا، التقت شـفاههما لأول مـرة منـذ فـترة بعيـدة.. كانـت قبلتهـما طويلـة جـدًا، شـديدة الرقـة وبالغـة العذوبـة.. في تلـك اللحظـة اجتاحتهـا رعشـة قويـة، اهتـز لهـا كل كيانهـا.. أحسـت أنهـا تريـد أن

تنجـب منـه طفـلًا آخـر.. اعتدلـت جالسـة عـلى ركبتيهـا تنـزع قميصهـا مـن فـوق صدرهـا، داعبهـا برفـق كأنـه يتحسـس جوهرتـين نفيسـتين.. تبـادلا القبـلات في شـغف، وتعانقـا بقـوة حتـى ذاب كل منهـما في الآخـر..

***

تجـاوزت السـاعة العـاشرة ليـلًا حـين إتسـعت عينـا "معتـز" عـن أخرهـما وهـو يغلـق حاسـبه الشـخصي في ذهـول، لا يصـدق مـا وقـع عليـه بـصره حـالًا.. كان قـد قابـل "داليـا" منـذ ما يقـرب مـن السـاعتين بعـد أن تلقـى منهـا إتصـالًا تخـبره فيـه أنهـا لـن تقابلـه في مكتبـه، أخبرتـه أنهـا مراقبـة وأنهـا تلقـت تهديـدًا بالقتـل.. قابلهـا في أحـد مقاهـي حـي المهندسـين المزدحمـة بالـرواد.. وجدهـا خائفـة، تبدلـت هيئتهـا تمامًـا.. لم تعـد تلـك الفتـاة الشـقراء الجميلـة، أصبحت صورتهـا أقـرب لواحـدة مـن تلـك الفتيـات المدمنـات..

لم يطـل لقاؤهـا معـه، اكتفـت بـأن أعطتـه قرصًـا صلبًـا أزرق اللـون مـن تلـك التـي تسـتخدم في تخزيـن الملفـات الإلكترونيـة.. تناولـه منهـا في دهشـة، لكنهـا لم تمهلـه.. أخبرتـه أن خالتهـا "صفـاء" كانـت قـد اتصلـت بهـا قبـل مقتلهـا بيـوم واحـد فقـط، أعطتهـا هـذا القـرص الصلـب وأخبرتهـا أن تحتفـظ بـه عندهـا لأنهـا لا تأمـن عليـه في بيتهـا.. أوصتهـا أن

تسلمه للشرطة في حال إذا ما أصابها مكروه.. حين سألها عن محتواه، غضت بصرها وقالت وهي تغادر: "من الأفضل أن تشاهده بنفسك.."

حين عاد لمكتبه أصدر أوامره بمنع أي شخص من الدخول لمكتبه، أوصل القرص بحاسبه الشخصي على الفور وفيه شاهد ما لم يتخيله عقله أبدًا.. كان بالقرص مجموعة كبيرة من الملفات المصورة بواسطة كاميرا تم إخفاؤها بعناية في غرفة نوم "صفاء"، التي عرفها على الفور حين وقع بصره على سريرها الضخم ذو الأعمدة المعدنية.. كل ملف من هذه الملفات يصور لقاءًا غراميًا جمع بين "صفاء" وأحد الأشخاص.. على مدى ساعتين كاملتين شاهد "معتز" كل الملفات المصورة.. رأى "أكرم رشدي" في أكثر من ملف، "هشام وهدان".. لاعبي كرة في أندية شهيرة، رجال أعمال.. شخصيات لم يتعرف عليها، وبعض الشخصيات العامة من أصحاب المراكز الشديدة الحساسية..

أشعل "معتز" سيجارة نفث دخانها في توتر شديد، كان عقله لا يتصور أن يصل الإنحراف والفساد لهذا الحد.. فعلى الرغم من كل القضايا الغريبة التي عمل على حلها، إلا أنه لم يصادف قضية تحمل في طياتها كل

هذا الشذوذ والإنحراف.. أخذ عقله يعمل بسرعة كبيرة، يحاول أن يصل لقرار حول كيفية التصرف حيال هذا القرص الصلب الملعون..

"هل أرسل في إستدعاء كل هؤلاء لاستجوابهم؟!!".. حدث نفسه في حيرة..

كان يعلم أن بعضهم محصن بحكم منصبه، وآخرون محصنون من واقع شعبيتهم الجارفة.. خطر في عقله "أدهم" ابنه، وتردد في ذهنه سؤال عجز عن إيجاد إجابة له:

"كيف سيكون الحال عندما يكبر أدهم؟"..

هز رأسه في قوة باعدًا عنها تلك الأفكار، أرسل في طلب "عمرو".. لم يطل إنتظاره طويلًا حتى جاء الأخير متلهفًا، قال:

- إيه يا باشا، قلقتنا عليك.

نظر "معتز" إليه طويلًا ولم يرد، فاستطرد "عمرو":

- أنا جهزت لسيادتك التحريات اللي طلبتها عن هشام وأكرم وليلى، في كلام كتير بيتقال ان أكرم وليلى علاقتهم الزوجية مش تمام بعد ما بنتهم ماتت.. وفي أقوال بتقول ان ليلى على علاقة مع هشام.. المهم

بقى يا باشا ان هما التلاتة كانوا في عيادة أكرم أمبارح الصبح بدري.. وفي ناس شافتهم نازلين شايلين سجادة كبيرة، الناس بتقول ان شكلهم كان مش طبيعي، كمان في ناس بتقول...

أشار "معتز" بيده نحو "عمرو" ليتوقف، وأعاد تشغيل حاسبه الشخصي مرة أخرى..

- يا نهار اسود!!.

نطق بها "عمرو" وهو لا يصدق ما يراه، مضى "معتز" يستعرض أمامه كل الشخصيات التي تم تصويرها حتى قفز "عمرو" من مقعده صارخًا:

- حتى ده كمان!!، هي البلد كلها كانت بتاخد البركة من الست دي ولا إيه؟!.

أغلق "معتز" حاسبه الشخصي ثم التفت نحو "عمرو"، قال:

- ودلوقتي إيه العمل؟.

- العمل عمل ربنا يا باشا، إحنا مش ممكن نبعت نستدعي الناس دول.

- أنا عارف يا عمرو، لكن دول كلهم مشتبه فيهم.

- مفهوم يا باشا، لكن مش كل مشتبه فيه ينفع نستدعيه هنا.

- أنا قلت كده برضه، علشان كده هابعت الهارد ديسك ده للمديرية.

***

اعتدلت "ليلى" في فراشها ببطء شديد، كانت مرهقة بلا أدنى شهية للحياة.. على الرغم من مطارحتها "أكرم" الغرام منذ سويعات قليلة إلا أن الحب الذي غمرها به لم ينجح في تحسين حالتها النفسية.. لم تتمكن من النوم، فعاد ذلك الإكتئاب البشع يغزو كيانها من جديد..

مدت يدها في ضجر نحو هاتفها المحمول، كانت شاشته تومض معلنة عن تجاوز عقارب الساعة لمنتصف الليل.. تأففت في سأم وهي تزحف خارج الغطاء، ألقت نظرة خاطفة على "أكرم" النائم جوارها يغط في سبات عميق.. بدا على ملامح وجهه الحزينة لمحة خفيفة من السعادة والسكينة.. طبعت قبلة طويلة على شعره ثم غادرت الغرفة تجر أقدامها..

تهاوى جسدها فوق أحد مقاعد الصالة، أغمضت عينيها في ألم وحزن.. كانت تتنازعها مشاعر كثيرة، حب

"أكرم" الجارف الذي يستوطن قلبها وحنقها عليه.. لم تعد تعرف ما السبيل للخروج من تلك الورطة.. "هشام" لن يتركها، ربما يؤذي "أكرم".. حينها لن تسامح نفسها أبد الدهر..

عاودتها نوبة غاشمة من نوبات الصداع الفظيع، التي باتت رفيقة لها منذ وفاة "فريدة".. بحثت عن أقراصها المسكنة، توجهت للمطبخ وتناولت قرصين بسرعة.. كانت تحتفظ بتلك الأقراص دومًا تحسبًا لنوبات الصداع التي تعصف برأسها، خاصة بعد أن توقفت عن تناول الدواء الذي وصفه لها "أكرم"..

هدأت حدة الصداع قليلًا، عادت تفكر من جديد في "أكرم".. شعرت نحوه بالرثاء، رأت أنه أصبح أكثر وحدة منها بعد أن نهش حزنه الدفين روحه.. لكن.. "ألسنا جميعًا بداخلنا مثل هذا الحزن.."، حدثت نفسها..

قديمًا كانت قد سمعت أمها تقول :"بداخل كل منا يرقد وجع صامت!!".. تعجبت حين أدركت أن الحياة حقًا حزينة، حتى في تلك اللحظات القصيرة التي نشعر فيها بالحب يغمرنا شعور غامض بالخوف.. الخوف مِن إنتهاء تلك اللحظات، والخوف مِنْ فقدان مَنْ نحب..

"لابد أن أذهب للقاء هشام، لا مفر من ذلك.."، غمغمت ثم قامت واقفة.. لكنها توقفت بعد أن لمحت ذلك الملف الأخضر اللون، الذي كانت قد أخذته من عيادة "أكرم".. أمسكته بين يديها تنظر له في شرود.. أخرجت ورقة فارغة من بين طياته، شرعت تكتب رسالة أخيرة إلى "أكرم"..

***

(٤١)

مـضى "هشـام" يجـوب غرفـة مكتبـه الواقعـة في إسـتراحته الخاصـة، الملحقـة بمصحتـه العلاجيـة الفاخـرة.. كان يتحـرك في عصبيـة واضحـة، تملـك منـه الغضـب بشـدة حتـى أنـه إحتـسى كأسـين مـن الويسـكي بالرغـم مـن إمتناعـه عـن تنـاول الكحـول منـذ أكـثر مـن عامـين.. كان كل شـئ يومـض أمـام عقلـه كأنـه لقطـات لشريـط سـينمائي.. سـمع صـوت "ليـلى" تحدثـه في الهاتـف منـذ أكـثر مـن عـام، تخـبره بحاجتهـا لمسـاعدته.. خفـق قلبـه لتلـك الذكـري تمامًـا كـما خفـق حـين سـمع صوتهـا آنـذاك..

حـين قابلهـا أخبرتـه أنهـا قـد يئسـت مـن إصـلاح "أكـرم"، حكـت لـه عـن مغامراتـه النسـائية التـي لا تنتهـي.. ذكـرت لـه اسـم "صفـاء عبدالحميـد"، إحـدى عشـيقات "أكـرم".. أخبرتـه أنهـا اتصلـت بهـا، وحكـت لهـا كل شـئ عـن علاقتهـا

مع "أكرم".. في هذا اليوم بكت "ليلى" كثيرًا، كان لبكائها أثر عجيب عليه.. تمزق قلبه لدموعها، لكنه شعر بسعادة عجيبة للجوئها إليه.. أحس أخيرًا بالإنتصار على "أكرم".. شعر أنه أفضل منه، ربما للمرة الأولى في حياته.. لكن ما أثار قلقه حقًا هو نظرات "ليلى"..

كانت نظراتها ما تزال محتفظة بذلك البريق الضاحك البرئ، تمامًا كذلك الذي كان يلمع في عينيها حين عرفها وقت أن كانت طالبة في الجامعة.. لكن شئ ما في نظراتها وحدسه كطبيب أوحيا إليه بملاحظتها..

كانت عيناها منكسرتين، تظهر أسفلهما تجاعيد وخطوط زرقاء تنم عن قلة النوم.. حتى تلك الإبتسامة التي حاولت "ليلى" رسمها على وجهها في ذلك اليوم لم تفلح في الإحتفاظ بها طويلًا.. بشرتها المائلة للإصفرار، شرودها الطويل في منتصف الحديث.. كل هذه الأعراض دفعته للإعتقاد بأنها مريضة، ضعيفة وتائهة.. لذا قرر مساعدتها ومحاولة علاجها..

مضت الأمور فيما بينهما طبيعية حتى أخبرته في أحد الأيام بموت ابنتها "فريدة".. جاءته وقتها منهارة تمامًا، لا تقدر على الوقوف.. إحتواها بذراعيه، طمأنها بأن كل شئ سيكون على ما يرام.. إزداد قربهما بعد تلك الحادثة،

أصبح لا يطيق الإبتعاد عنها.. لكنه كان يشعر طوال الوقت بوجود حاجز بينهما يخشى تجاوزه.. كان طيف "أكرم" دومًا ما يحول بينه وبينها..

ثم جاء اليوم الذي إكتشف فيه حقيقة مرضها.. كانت الوقت متأخرًا حين دخلت عليه مساعدته تخبره بأن سيدة تطلب لقاءه في أمر عاجل.. اقتحمت "ليلى" الغرفة بينما كان "هشام" ما يزال يتحدث مع مساعدته.. ما أن رآها حتى أشار لمساعدته بالإنصراف وهو ينظر نحوها باستغراب شديد..

كانت مختلفة، مختلفة تمامًا..

ترتدي ثوبًا قصيرًا للغاية أسود اللون، فاضح يكشف نصف صدرها تقريبًا منقوش عليه رسم لفراشة.. تفوح منها رائحة عطر نفاذ.. وشعرها الأسود الغزير يبدو أنها قضت وقتًا طويلًا في محاولة عقصه وتصفيفه، لكنها أصيبت بالملل فتركته دون الإنتهاء من تسريحه.. فبدا مهوشًا فوق رأسها، وتدلت خصلة طويلة منه على جبينها..

أخذت تقترب منه في هدوء أثار الخوف في قلبه.. كانت نظراتها جامدة، ثابتة على وجهه كأنها لا ترى أمامها غيره.. كانت عيناها تلمعان ببريق غريب، شارد

لكنه شديد القوة والنفاذ.. بريق يعرفه جيدًا بحكم عمله.. بريق الجنون..

لم يستطع السيطرة على نفسه، فغلبته الدهشة حينها وقال:

- ليلى!!.

إقتربت منه في دلال، أخذت تتمايل في مشيتها تبرز فتنة ردفيها.. انحنت فوق مكتبه بنصفها العلوي ثم مسحت بيدها على صدرها، قالت بصوت بدا كالفحيح:

- بتحبها؟!.

تغلب على دهشته وتمالك أعصابه سريعًا، حاول أن يركز ذهنه في مراقبة أفعالها الغريبة.. لم يصدها، تظاهر بالإستسلام لها حتى يكتشف حقيقة أزمتها.. إبتسم لها في هدوء متصنع ثم قال:

- طبعًا بحبها.

دارت بجسدها حول المكتب ثم اقتربت منه أكثر، ألقت بنفسها فوقه.. جلست على فخذه، ثم قالت بصوت مخنوق:

- كل الرجالة بتحب ليلى، مش كده؟.. مفيش حد يقدر يقاومها.

أنهت عبارتها السابقة ثم قربت شفتيها من شفتيه، وهمت بتقبيله.. إشتد لمعان البريق المخيف في عينيها، تهدجت أنفاسها في حشرجة مسموعة..

بالرغم من طوفان المشاعر التي غمرته، تلك الأحاسيس يكنها لها.. إلا أنه تمكن من السيطرة على نفسه بصعوبة.. فأمسك بها يرفعها من فوق فخذه ثم انتفض واقفًا، أخذ يهزها بعنف من كتفيها ويصيح:

- ليلى فوقي، كفاية كده.

اشتد الجنون في عينيها وكشفت عن أسنانها كأنها تهم بعضه.. قالت وهي تصرخ بصوت أعلى من صياحه:

- انت ليه مش عاوزني؟!، ليه مش عاجباك؟!.

مدت ذراعيها تحاول التعلق بعنقه، قربت وجهها منه تحاول أن تنقض بأسنانها على شفتيه.. فعاد يصرخ فيها من جديد وهو يهزها في عنف أكبر.. يحاول إبعادها عن وجهه، وعيناه مسلطتان على عينيها لمراقبة ذلك البريق المخيف.. لكنها لم تكن تسمعه، ظلت تصرخ بهستيريا شديدة:

- حرام عليك، حرام عليك.

لم يكن أمامه طريق آخر.. رفع كفه وهوى به على وجهها بقوة شديدة.. وجمت لبرهة، كأنها لم تشعر بالصفعة.. تاهت عينيها للحظات ثم عاودت الهجوم عليه.. بكل قوته صفعها صفعة ثانية، ثم ثالثة..

سقطت على الأرض أسفل قدميه، تنظر نحوه بعينين متسعتين كأنها بدأت تفيق.. بدأت تستعيد شخصيتها الحقيقية..

ظلت على تلك الحال لفترة.. تنظر نحوه بعينيها الواجمتين المتسعتين عن آخرهما، أنفاسها لاهثة كأنها عادت للتو من مشوار بعيد.. لحظات، وبدأت رموشها الطويلة تهتز فوق عينيها هزات سريعة متتالية.. أخذت تتلفت حولها في ذهول كأنها لا تعرف أين هي.. عادت تنظر إليه من جديد كأنها تسأله.. ثم نظرت إلى نفسها، إلى ثوبها الفاضح وصدرها المكشوف.. وضعت ذراعيها فوق صدرها تحاول ستره ثم شهقت شهقة حادة.. وسقطت في نوم عميق، كأنما أغشى عليها.. تركها لتنام، فلم يكن في وسعه أن يفعل شيئًا آخر..

ومنذ ذلك اليوم والعلاقة فيما بينهما أصبحت وطيدة.. أخبرها بأن تمتنع عن تناول الدواء الذي وصفه لها "أكرم".. كان يستمتع أكثر حين تستحوذ عليها الشخصية

الثانية.. كانت جامحة هيستيرية، لا تتورع عن فعل شئ.. مارس معها الحب كثيرًا، كما لم يمارسه مع غيرها.. حين تفيق كانت لا تتذكر شيئًا مما حدث.. بدأت أحلامه تغدو واقعًا، أصبح يلمسه كل يوم.. فقط كان "أكرم" هو العائق..

كان يعلم أن توقفها عن تناول الدواء سيزيد من سوء حالتها، لكنه لم يبال وأقنعها بضرورة الإمتناع عن تناوله.. كان في حقيقة الأمر يخشى إن عادت لها شخصيتها الحقيقية أن ترفضه كما فعلت قديمًا، كان يخاف أن تختار كما هي عادتها "أكرم"..

حين أخبرته شخصيتها الثانية برغبتها في الإنتقام من "أكرم"، عزمها على التخلص منه.. لم يتردد، ووافق على الفور.. أخبرها بأن تعطيه دواءً مهدئًا منحها علبته، لكنه كان في حقيقته دواءً يسبب الهلاوس والإضطرابات.. فقط بدل علبة الدواء الأصلي ووضع فيها حبوب الهلوسة.. ثم شاركها في إزاحة كل من عكر صفو حياتها من طريقها.. "صفاء" و"إيمان"، حتى "صباح".. بل أنه شاركها في تحليل شعور "أكرم" نحوهم.. تذكر تلك القبلة التي منحها لها حين أخبرته أنها تظن أن "أكرم" يبحث في "صفاء" عن

أمـه وفي "إيمـان" عـن الحبيبـة، يأمـل أن يجـد في "صبـاح" الإبنـة التـي فقدهـا..

صـب لنفسـه كأسًـا جديـدة ثـم جرعهـا دفعـة واحـدة، تقلصـت ملامحـه لوهلـة مـن مـرارة مـذاق الكحـول.. أمسـك بهاتفـه المحمـول ثـم طلـب رقـمًا، جـاءه الـرد عـلى الجانـب الآخـر فقـال:

- هستناكي دلوقتي في الإستراحة بتاعة المصحة.

صمت قليلًا ثم قال بحدة:

- أيـوه دلوقتـي، الموضـوع مهـم.. مـش هينفـع يسـتنى للصبـح.

أنهى مكالمته ثم تمتم في غضب:

"ليس الآن يا أكرم، لن أخسر كل شئ الآن"..

***

فتـح "أكـرم" عينيـه بتكاسـل، كانـت لحظـات السـعادة القليلـة التـي حصـل عليهـا مـع "ليـلى" قبـل نومـه مازالـت تسـيطر عـلى حواسـه.. تثـاءب وفـرد ذراعيـه إلى أقـصى مداهـما، ثـم التفـت إلى جـواره يبحـث عنهـا.. ابتسـم حـين لم

يجدهـا نائمـة، خمـن أنهـا ربمـا تجلـس كعادتهـا عـلى مقعدهـا الأثـير في الصالـة..

قـام مترنحًـا مـن الفـراش، كان مفعـول سـكرة الحـب مسـتحوذًا عليـه إلى الآن.. خـرج للصالـة فلـم يجدهـا، نـادى عليهـا عـدة مـرات.. لكـن، لا مجيـب..

بـدأ القلـق يسـتولي عـلى ذهنـه.. لكنـه لمـح ذلـك الملـف الأخـضر موضوعًـا عـلى كرسـيها الأثـير.. اقـترب منـه فوجـد ورقـة مطويـة بعنايـة أسـفله.. فتحهـا وقـد تملكـه الفضـول، وشرع يقـرأ مـا فيهـا..

"لا توجـد سـوى إمـرأة واحـدة فقـط تتربـع قلـب الرجـل، وكذلـك هـو رجـل واحـد مـن يـأسر قلـب المـرأة، أمـا ماعـدا ذلـك فليـس سـوى محـاولات يائسـة للتعويـض.." لم أجـد أفضـل مـن هـذه العبـارة أبـدأ بهـا رسـالتي الأولى والأخـيرة لـك..

كان عـلي أن ألقـي وراء ظهـري كل مـا جـرى، لكنـي لم أسـتطع حمـل نفـسي عـلى ذلـك.. حـين كنـت صغـيرة سـألت نفـسي كثـيرًا لمـاذا نحيـا؟.. لم أتمكـن مـن الإجابـة، وكذلـك أبي وأمـي لم يمنحـاني جوابًـا مقنعًـا.. خمنـت أنهـما لا يعرفـان أيضًـا.. عـلى أيـة حـال مـن بإمكانـه أن يعـرف؟..

اكتشفت مع مرور الأيام وتقدمي في العمر أن الأمر ليس إلا خدعة كبيرة.. فالحياة ما هي إلا كذبة نحياها في حيرة بلا هدف، ندور في فلكها تائهين بغير توقف.. ظاهرها أنك يتوجب عليك الحياة فور ولادتك حتى يأتيك الموت.. كلا ليس هذا حقيقيًا على الإطلاق.. فالحقيقة أننا من الممكن أن نموت ومع ذلك نبقى أحياء.. هذا ما حدث معي منذ أن ماتت "فريدة"..

كنت أتمنى أن أجدك إلى جواري حينها، لكن ذلك لم يعد يهم الآن.. هل أخبرتك من قبل أنني كلما انتهيت من الإستحمام كنت أرتجف.. نعم كان جسدي يرتجف بشدة، ليس من البرودة ولكن من الوحدة.. يهزني النواح الذي أكتمه، الأسى على يوم آخر سينقضي دون أن أكون إلى جوارك.. أصبحت كنهر جف ماؤه، إمتلأ مجراه بحجارة قاسية أخذت تقطع في لحمي قطعة تلو القطعة..

حاولت كثيرًا أن أبتعد عنك، لكنني فشلت.. فمأساتي الحقيقية تكمن في أني أحبك بصورة لم أقدر على اخفائها أو حتى تجاهلها.. فأنا فقط التي تعرف كم أنت أذكى وأرق وأنبل رجل في هذه الحياة.. عرفتك قبل أن ألتقيك.. كنت في بدني طوال الوقت لكنني لم أحسك حتى التقينا،

في شفتي لكنني لم أتذوقك حتى قبلتك، في عيني لكنني لم أرك حتى غامت رؤيتي بين أحضانك..

كنت عذابي المقيم، شوقي الدائم.. كنت دومًا ذلك الشيء الرائع الذي أتذكره كي أتمكن من البقاء.. فأنَّى تكون لدي المقدرة على تحمل فراقك..

أتعلم ما أريده حقًا؟!.. الصمت، لا تتعجب فأنا أتوق للحظة صمت بداخلي.. صمت يمكنني فيه سماع صوت تدفق دمي في عروقي.. صمت أسمع معه صوت انسياب دموعي على خديَّ.. لكنني اكتشفت أنه لا وجود لمثل هذا الصمت سوى في مكان واحد بعيد.. هناك في القبور، عند "فريدة"..

أرجو أن تسامحني على كل شئ، فأنا قد سامحتك.. ولتعلم أني أحبك إلى الدرجة التي أستطيع معها أن أختفي من حياتك إذا كان هذا الاختفاء سيجعلك سعيدًا.. فبك غسلت روحي من صدأ لازمها حتى ظننت أنه لن يفارقها أبدًا، ومعك بدأت حياتي الحقيقية.. ويبدو لي أنها ستنتهي قريبًا كما بدأت معك..

أحبك..

نظـر "أكـرم" إلى الورقـة بـين يديـه لا يصـدق مـا قرأتـه عيناه، أخـذ يتلفـت حولـه كالمجنـون.. علم مـا تنتويـه "ليلى"، كانـت سـتنتحر.. توجـه سريعًـا لغرفـة نومـه، ارتـدى ملابسـه وعقلـه مشـغول بالتفكيـر عـن المـكان الـذي قـد تتوجـه إليـه.. فتـح بـاب الشـقة، لكنـه توقـف حـين سـمع هاتفـه المحمـول يـرن.. عـاد وقـد إمتـلأت نفسـه بالسـخط، لكنـه لسـبب لا يعلمـه قـرر أن يـرد..

جاءه صوت "هشام" يقول في سخرية:

- انت لسه عايش يا دكتور؟!.

جز "أكرم" على أسنانه وقال في حدة:

- أنا مش ناقصك دلوقتي، ليلى مش لاقيها واحتمال.....

قاطعه "هشام" في هدوء:

- ليـلى عنـدي، لـو عايزهـا تعـالى.. وسـاعتها ممكـن نشـوف هـي هتختـار مـين؟.

- انت بتقول إيه يا حيوان انت؟.

- زي مـا سـمعت بالضبـط، أنـا مسـتنيك في إسـتراحة المصحـة بتاعتـي.. عارفهـا؟، في نفـس المـكان الـلي دفنـا فيـه صبـاح.

أنهـى عبارتـه ثـم أغلـق الخـط في وجهـه، تركـه وقـد فـارت الدمـاء في رأسـه.. قـرر أن يتخلـص منـه، يسـترد "ليلى"..

مهما كان الثمن..

***

- انت لسه ما روحتش يا باشا؟.

انتبـه "معتـز" مـن شروده حـين سـأله "عمـرو"، رفـع رأسـه نحـوه ثـم قـال:

- هروح أعمل إيه؟، مفيش حد في البيت.

- هي الهانم لسه عند والدتها؟.

إكتفـى "معتـز" بإيمـاءة مـن رأسـه، ولم يـرد.. اسـتطرد "عمـرو" قائـلًا:

- يـا باشـا مفيـش داعـي للعنـد، برضـه هـي عندهـا حـق.. سـيادتك تقريبًـا متجـوز المباحـث.

رمقـه "معتـز" بنظـرة حانقـة فالتـزم "عمـرو" الصمـت، بعـد فـترة قطعـه "معتـز" حـين قـال بنـبرة رسـمية:

- عملت إيه في مراقبة الدكاترة؟.

- تمام سعادتك، هشام وهدان موجود في طريق اسكندرية الصحراوي.. في المصحة بتاعته.. فرد المراقبة اللي تحت بيت أكرم رشدي لسه قافل معايا، قال لي ان ليلى نزلت من البيت.. اتحركت بعربيتها، هي معاها تويوتا زرقاء.. كان عاوز يتابعها لكن أنا قلت له خليك تحت البيت وإياك تتحرك.

- الساعة كام دلوقتي؟.

- ثلاثة إلا ربع صباحًا يا باشا.

- غريبة جدًا!!، إيه إللي ممكن ينزلها في وقت زي ده؟!.

قطع حديثهما صوت رنين هاتف "معتز".. التقطه على الفور ما أن شاهد اسم محدثه، اعتدل في جلسته.. تغيرت لهجته إلى إحترام بالغ:

- تمام يا باشا، تحت أمر معاليك.

صمت لوهلة، تغيرت ملامح وجهه بصورة عجيبة.. تحدث بعد فترة فخرج صوته مبحوحًا:

- لكن سيادتك الموضوع مش محتاج....

صمت مرة أخرى بعد أن قاطعه محدثه، خرج صوته مرة أخرى لكنه كان باردًا هذه المرة:

- لا يا باشا، مفيش حد غيري شاف الملفات دي.

صمت من جديد ثم قال بنبرة جامدة:

- أوامرك يا باشا، مع ألف سلامة.

ضغط على زر إنهاء المكالمة ثم أمسك بهاتفه يعتصره في يده بقوة شديدة.. وضعه على المكتب ثم خبط بقبضته الضخمة فوقه فأصدرت صوتًا واضحًا.. انتاب "عمرو" القلق لهذا التحول الغريب في سلوك "معتز" فقال بتوتر:

- خير يا باشا، في حاجة؟.

تفحصه "معتز" طويلًا ثم قال:

- المديرية بتبلغني اننا نعتبر التحقيق اتحفظ في قضية صفاء.

- نعم!!، اتحفظ إزاي؟.. مش فاهم.

- إيه اللي انت مش فاهمة بس يا عمرو؟.

- يعني التحقيق اتحفظ ولا لأ؟

- الموضوع مبقاش ضمن اختصاصنا.

- إزاي كده؟!، واحنا مقدمين لهم دليل ادانة صريح؟!.

- ما هو الدليل ده كان السبب للأسف.
- أنا مش قادر أصدق، طيب والناس اللي ماتت دي.
- الله يرحمهم.
- الله يرحمهم!!، طيب والعدالة؟.
- العدالة في بلدنا نسبية يا عمرو.

ساد الصمت بينهما لفترة حتى هم "عمرو" بالمغادرة، لكن "معتز" أشار له أن يأخذ هاتفه معه أخبره أنه لا يريد أن يحدث أحد الآن.. تناول "عمرو" الهاتف وذهب إلى مكتبه مذهولًا، لا يصدق ما سمعه منذ دقائق قليلة.. قطع حبل أفكاره صوت رنين هاتف "معتز" مجددًا.. حين رد على المكالمة جاءه صوت "هشام" على الطرف الآخر يصرخ قائلًا:

- الحقني يا معتز بيه، أكرم رشدي اتجنن يا باشا.
- إهدا من فضلك يا دكتور، أنا النقيب عمرو الوقاد.
- يا عمرو بيه، أكرم لسه قافل معايا دلوقتي.. هددني إنه هيقتلني أنا وليلى.
- هي ليلى عندك؟.

- أيوه يا باشا، هددها هي كمان بالقتل فهربت تستخبى عندي.
- تمام، خليك عندك ما تتحركش.. إحنا هنكون عندك حالًا.

على الفور أمسك "عمرو" بهاتفه المحمول وطلب رقمًا، قال بعد أن سمع الرد على الجانب الآخر:

- أيوه يا بني، أخبار الهدف المراقب عندك إيه؟.
- لسه نازل من شوية يا باشا.
- وما قلتليش ليه ساعة لما نزل؟.
- مش سعادتك قلت لي أفضل مكاني!!.

لم يجد "عمرو" فائدة من الحوار فأنهى المكالمة وهو يسب ويلعن.. تناول هاتف القسم ثم طلب رقمًا داخليًا، سمع صوت "معتز" يقول في حدة:

- أنا مش قلت مش عاوز إزعاج.

لكن "عمرو" قال بلهجة جادة:

- أكرم يا باشا بيتحرك دلوقتي، رايح يقتل هشام وليلى.

***

(٥١)

كان الماء ينهمر بشدة، كاسحات المطر تميل يمينًا ويسارًا بأقصى سرعة على الزجاج الأمامي لسيارة "أكرم".. تنافس في سرعتها تلك السرعة المرعبة التي تنهش بها السيارة الطريق الصحراوي.. فمنذ أن تلقى "أكرم" إتصال "هشام" لم يعد يرى أمامه سوى صورة "ليلى"، تمد يدها نحوه في رجاء.. لم يعد يسمع إلا صوتها تطلب منه النجدة.. أصبح إنقاذها واستعادتها هما كل ما يشغل باله، كل ما تبقى له في هذه الحياة.. لذا فقد استعد جيدًا لهذا اللقاء.. جز على أسنانه حين نظر لذلك السلاح الناري على المقعد المجاور له، كان خاصًا بوالده..

انتبه من أفكاره على صوت رنين هاتفه المحمول، أبصر إسم "هشام" يومض فوق الشاشة فأجاب على

الفـور.. جـاءه صوتـه يقـول بنـبرة بـاردة بـات لا يكـره أكـثر منهـا في هـذه الحيـاة:

- لمـا توصـل عنـد المصحـة، أدخـل في الشـارع إلـى قبلهـا.. هتلاقينـي مسـتنيك هنـاك.

لم يـزد عـلى تلـك العبـارة شـيئًا، ثـم أنهـى المكالمـة.. إسـتعرت الشـكوك في عقـل "أكـرم"، لكنـه طـمأن نفسـه وأمسـك بسـلاح والـده يدسـه أسـفل ملابسـه.. لمعـت عينـاه ببريـق الإنتقـام..

هـدأ مـن سرعتـه قليـلًا حـين اقـترب مـن المصحـة.. عـرج بسـيارته إلى الشـارع قبلهـا، تمامًـا كـما أخـبره "هشـام".. في نهايتـه وجـد ضـوءًا يلمـع وسـط الظـلام بإشـارات متكـررة، أوقـف سـيارته بالقـرب مـن السـور المرتفـع للمصحـة.. ترجـل مـن السـيارة يحـاول إسـتجلاء الرؤيـة، التـي باتـت متعـذرة مـع اشـتداد المطـر وغزارتـه.. حملـت لـه الريـاح القويـة صـوت "هشـام" يقـول صائحًـا:

- لغاية آخر وقت عاوز تحرمني منها.

إقترب منه "أكرم" بخطوات حذرة وهو يقول:

- مش لو كانت بتاعتك من الأصل.

قهقه "هشام" بصوت مرتفع ثم قال يستفزه:

- لا هي بتاعتي، بس إنت اللي مش واخد بالك.

- تقصد إيه؟!.

- قصـدي إنـك طـول عمـرك أنـاني، مـش بتفكـر غـير في نفسـك.. حتـى ليـلى كنـت بتعاملهـا عـلى انهـا حاجـة مسـلم بيهـا، أو عاملهـا إحتياطـي لـو واحـدة من السـتات بتوعـك سـابتك.

- إيه الكلام الفارغ ده؟.

- دي الحقيقة يا دكتور.

صمـت بعدهـا "هشـام" لوهلـة ثـم أشـار لـ "أكـرم" بالتوقـف عـن السـير، إقـترب منـه مسـلطًا ضـوء الكشـاف في عينيـه.. رفـع "أكـرم" كفيـه أمـام وجهـه حاميًـا عينيـه مـن شـدة الضـوء، لم يتنبـه إلا حـين شـعر بضربـة قويـة عـلى رأسـه..

أظلمـت الدنيـا مـن حولـه تمامًـا، تهـاوى جسـده.. ارتطـم وجهـه بعنـف في الوحـل..

***

فتـح "أكـرم" عينيـه بصعوبـة شـديدة.. كان رأسـه يؤلمـه بشـدة، تجلطـت بعـض الدمـاء عـلى جبهتـه.. دوار طفيـف

مايـزال مسـيطرًا عـلى عقلـه، ذلـك الضـوء المبهـر في المـكان يسـبب ألمًـا حـادًا في عينيـه.. سـمع صـوت "هشـام" يقـول سـاخرًا:

- حمدالله على السلامة يا دكتور.

- انت أكيد اتجننت.

صمت "هشام" قليلًا ثم قال وهو يمط شفتيه:

- أنا!!، ما اظنش.. لكن إنت، إحتمال كبير.

- مش فاهم.

- مـش مهـم تفهـم، مـش كل حاجـة بتـدور في فلـكك يـا كيمـو.

ثـم أطلـق ضحكـة سـاخرة تـردد صداهـا في فضـاء الغرفـة وهـو ينظـر لمظهـر "أكـرم" المـزري، ملابسـه المبتلـة المتسـخة مـن أثـر سـقوطه في الوحـل.. تلفـت "أكـرم" حولـه، حـاول أن يتحـرك فاكتشـف أنـه مقيـد بحبـال غليظـة تشـد وثاقـه إلى كـرسي معـدني.. حـاول التحـرك مـن جديـد فتحـرك الكـرسي مـن تحتـه مصـدرًا جلبـة، واسـتعرت آلام حارقـة في معصميـه بفعـل الحبـال.. التفـت "هشـام" نحـوه ثـم قـال:

- إيه مش عارف تفك نفسك؟، حاول مرة كمان.

- إنت أحقر إنسان شفته في حياتي، لو راجل فكني.

- ليه علشان تقتلني.

قالهـا "هشـام" ثـم أخـرج مـن خلـف ظهـره سـلاح والـد "أكـرم".. نظـر نحـوه طويـلًا في شـماتة واضحـة ثـم قـال:

- طـول عمـرك خايـب، مـش بتعـرف تعمـل حاجـة لوحـدك.. حتـى لمـا فكـرت تقتـل، دورت عـلى سـلاح أبـوك.

رمقه "أكرم" وقال محتدًا:

- إنـت الـلي الحقـد مغطـي عينيـك، طـول عمـرك شـايف نفسـك أقـل منـي.. حتـى لمـا نجحـت، برضـه عـاوز تاخـد حاجتـي.

رفع "هشام" حاجبيه ثم قال متعجبًا:

- أنـا!، أحقـد عليـك إنـت!!.. مـش قلـت لـك، مشـكلتك إنـك فاكـر ان كل حاجـة بتـدور حواليـك.

تجاهلـه "أكـرم" تمامًـا، كأنـه لم يقـل شـيئًا.. أخـذ يتلفـت حولـه ويـصرخ مناديًـا:

- ليلى، ليلى.

قاطع "هشام" صياحه قائلًا بنبرة مستفزة:

- ما تحاولش، مش هتسمعك.

حدجه "أكرم" بنظرة غاضبة ثم قال بصوت هادر:

- عملت فيها إيه يا حيوان؟!.

- ولا حاجة، هي اللي مش عاوزة تشوفك.

قرن "أكرم" حاجبيه وتمتم بحدة:

- مش ممكن، مستحيل!!.

رسم "هشام" على وجهه إبتسامة لزجة وقال بهدوء قاتل:

- ليلى اللي إنت تعرفها خلاص، ماتت.

خرج صوت "أكرم" هادرًا حين صرخ فيه:

- لو عملت فيها حاجة، أنا هقتلك.

- مش أنا اللي قتلتها، هي قتلت نفسها.

- مستحيل.

- زي ما قتلت فريدة.

صمت "أكرم" تمامًا حين سمع اسم ابنته، ارتعشت عينه اليسرى واهتزت شفته السفلى.. رغمًا عنه خرج صوته مرتعشًا ضعيفًا حين قال:

- إنت بتقول إيه؟!.

- بقولك على الحقيقة، ده حقك عليا كصاحب.

تمالك "أكرم" نفسه وصرخ بحدة:

- إخرس.

- مش بقولك ضعيف، مش قادر حتى تواجه نفسك بالحقيقة.

هز "أكرم" رأسه بعنف، قال بصوت مخنوق بعد أن شعر بغصة قوية في حلقه:

- إخرس، فريدة ماتت بسببي.

- حتى شهادتك اللي عملت منك بني آدم، ما كنتش تستحقها. تقدر تقول لي فريدة ماتت إزاي يا دكتور؟.

هز "أكرم" رأسه بعنف أكبر ثم سالت دموعه وهو يصرخ:

- مش فاكر؟.

- طبعًا، مش هتفتكر.. لأنك ما تعرفش حاجة عن الحكاية دي خالص.

قال "أكرم" بصوت مكتوم، شردت عيناه كأنه يتذكر:

- أنا فقدت الذاكرة بعد الحادثة، وليلى قالت....

قاطعه "هشام" بضحكة مستهزئة ثم قال في سخرية:

- هههههه ليلى قالت، بابا وماما كمان قالوا. هو انت مش بتعرف تقول حاجة لوحدك أبدًا؟.

أشاح "أكرم" بوجهه عنه محاولًا مداراة دموعه التي أبت أن تتوقف، قال بصوته المكتوم:

- انت أكيد مش بني آدم.

لمعت عينا "هشام" بشدة، وقال بعد أن فرد قامته في زهو:

- صح، في دي عندك حق.

ثم إقترب من وجه "أكرم" ورماه بنظرة ظهر فيها الحقد، بانت فيها شماتته.. خرج صوته كالفحيح:

- أنا فعلًا مش بني آدم، أنا الدكتور هشام وهدان.. أنا اللي قدرت أشخص مرض مراتك لما جاتلي عيادتي بترتجف علشان خنقت بنتها بايديها، مش فاكرة ولا عارفه إزاي ده حصل.

هز "أكرم" رأسه وأخذ يتمتم في ذهول:

- مش معقول.

- أنا إللي عرفت في اليوم ده إن ليلى عندها ازدواج في الشخصية، عرفت منها إنك كنت كاتبلها مهدئ.

صمت "أكرم" مذهولًا ولم يرد بعد أن زاغت نظراته، فاستطرد "هشام" في صوت بدا مشتعلًا بنيران الغل:

- أنا إللي منعت عنها الدواء، خليت شخصيتها التانية تسيطر. كنت بحقق حلمي الأخير اللي لسه ما حققتوش، حلمي اللي فلوسك ومكانة أهلك حرموني منه. أنا إللي خليتها تبدل الحبوب بتاعتك من علبة المهدئ، خليتها تحط لك بدالها حبوب هلوسة.

- لكن أنا...

لم يتمكن "أكرم" من إكمال عبارته بعد أن صرخ فيه "هشام" مقاطعًا:

- انت تسكت خالص. انت خلاص، مش موجود. دلوقتي في أنا وبس، وأنا مش هسمح لحد إنه ياخد مني حاجة أنا عاوزها.

- ليلى!!.

إلتفت "هشام" خلفه بحدة فور سماعه لـ"أكرم" ينطق بإسمها، كانت "ليلى" تستند على باب الغرفة بذراعيها.. تترنح وقد ظهر على ملامحها الوهن والإعياء الشديد، بالكاد تقف على قدميها بصعوبة بالغة.. حاول "أكرم" التملص من قيده كالمجنون، لكنه فشل.. تحرك "هشام"

سريعًا نحوها فتهاوى جسدها بين ذراعيه، إلتقطتها ثم طبع قبلة حانية على جبينها وقال بصوت حان:

- إيه اللي خلاكي تقومي دلوقتي يا حبيبتي؟.

- خرج صوتها ضعيفًا مهزوزًا كأنها واقعة تحت تأثير مخدر:

- أنا حاسة إني بتقطع، بتقسم نصين.. دماغي هتنفجر.

- ليلى.

رمت بنظراتها في وهن نحو "أكرم" حين سمعت نداءه بنبرة صوته الحانية، لكن نظراتها كانت غريبة.. كانت شاردة تلمع بذلك الوميض.. اتسعت عينا "أكرم" وسالت دموعه من جديد حين أيقن بجنونها، لكنه تماسك وقال بصوت حاول أن يبقيه هادئًا:

- أنا أكرم يا ليلى.

حملها "هشام" بين ذراعيه بعيدًا عن "أكرم"، خوفًا من تأثير نظراته عليها.. أجلسها خلف المكتب ثم أراح رأسها على ظهر مقعده، استكانت وأغمضت عينيها.. مسح على شعرها في حنان وهو يغمرها بنظرات تقطر بالهيام، ثم التفت نحو "أكرم" قائلًا:

- ما تحاولش، ليلى اللي انت تعرفها خلاص انتهت.

- مش ممكن!!.

- وانت كلها دقايق والبوليس ييجي ياخدك علشان النسوان بتوعك اللي ماتوا.

- لكن أنا مش فاكر أي.....

قاطعه "هشام" بحدة، وهو ينظر نحوه بإزدراء بالغ:

- مش فاكر، مش فاكر. زهقتني يا أخي، قلت لك مش مهم. المهم ان كل حاجة متظبطة.

قالها ثم رماه بإبتسامة صفراء مستفزة، صب لنفسه كأسًا من الويسكي جرعها دفعة واحدة ثم قال:

- كل حاجة بالضبط على مقاس رقبتك، علشان لما عشماوي يلف الحبل حولها ما يتعبش.

رماه "أكرم" بنظرة إشمئزاز بعد شعر أنه لامفر من مواجهة الموت.. قرر ألا يظهر ضعفه أمامه، أن يخوض معركته معه حتى النهاية:

- إنت فاكر إني هزعل لما أموت، بالعكس أنا هرتاح.

قهقه "هشام" وقال في سعادة واضحة:

- حلو قوي، يبقى كلنا هنرتاح.

تجاهلـه "أكـرم" ثـم التفـت نحـو "ليـلى" التـي كانـت مغمضـة العينـين، وقـال يخاطبهـا:

- أنـا بـس عـاوز أعـرف منـك حاجـة أخـيرة، إنـت صحيـح مبقتيـش بتحبينـي؟.

لم يأتـه رد منهـا وبقيـت عيناهـا عـلى حالهـما سـاكنتين، أتـاه صـوت "هشـام" يقـول سـاخرًا:

- قلت لك ما تتعبش نفسك.

لم يلتفت "أكرم" نحوه، وواصل حديثه مع "ليلى":

- أنـا كنـت السـبب في مـوت فريـدة ولا لأ؟، جـاوبي أرجـوكي.

لم تـرد مجـددًا، وإن إرتعـش جفناهـا قـدر يسـير.. فـأردف "أكـرم" بحـدة:

- ده بيقول إنك انتِ اللي قتلتيها.

أزدادت الرعشـة في جفنيهـا، بـدا عليهـا أنهـا تقـاوم شـيئًا خفيًـا.. فـصرخ "أكـرم" فيهـا بأعـلى صوتـه:

- بيقول إنك قتلتي بنتنا يا ليلى.

ارتعـش جفناهـا واهتـزا في حـركات سريعـة متعاقبـة، تهدجـت أنفاسـها في حشرجـة مسـموعة.. انتفـض جسـدها

يرتـج بقـوة، فصرخـت بصـوت مرتفـع.. فتحـت عيناهـا عـن آخرهـما تنظـر حولهـا في ذهـول كأنهـا تـرى أشـياءًا لا يراهـا غيرهـا، تلـوح بذراعيهـا في الهـواء وتتمتـم بعبـارات غـير مفهومـة.. حاولـت الوقـوف، كاد أن يختـل توازنهـا فإسـتندت بكفيهـا عـلى طـرف المكتـب تقـاوم السـقوط.. نظـرت نحـو "أكـرم" نظـرة خاطفـة.. رأى فيهـا تلـك النظـرة التـي يعرفهـا جيـدًا، التـي يعشـق تفاصيلهـا.. فجـأة تهـاوي جسـدها، ارتطمـت رأسـها بـالأرض في صـوت مرتفـع.. بـدأت تتلـوى وتتشـنج في حـركات عنيفـة، كانـت تـرى خيـالات وأطيـاف تتحـرك مـن حولهـا.. بـدأت الدنيـا تظلـم مـن حولهـا، ذلـك الطنـين اللعـين تـزداد حدتـه.. حتـى باتـت لا تسـمع سـواه.

***

خفـت حـدة الطنـين شـيئًا فشـيئًا، بـدأ الهـدوء يسـود عقلهـا.. فتحـت عينيهـا في بـطء، كانـت تشـعر أنهـا خفيفـة للغايـة وحالـة غريبـة مـن السـكينة تسـيطر عـلى كل كيانهـا.. كأنهـا فراشـة صغـيرة تحلـق في أعـالي السـماء بحريـة مطلقـة.. تلفتـت حولهـا فلـم تـر شـيئًا في البدايـة، شـيئًا فشـيئًا بـدأت الرؤيـة تنجـلي أمامهـا..

كانـت تـرى نفسـها واقفـة في غرفـة نـوم "فريـدة" بالقـرب مـن فراشـها، ترميهـا بنظـرات غريبـة.. نظـرات شـاردة جامـدة

لا حياة فيها، و"فريدة" تنظر لها بحب ويصدر عن فمها غمغمة طفولية بريئة.. رأت نفسها تتحرك نحو الفراش بهدوء غريب ثم تميل برأسها إلى اليمين قليلًا، فجأة أمسكت بالوسادة الوردية ووضعتها فوق وجه "فريدة"..

لم تتحمل أكثر من ذلك فأشاحت بوجهها سريعًا وهي تحاول الصراخ بعد أن انهمرت دموعها، لكن صوتها لم يخرج من فمها كأنما أصابها الخرس.. حاولت أن تتحرك، أن تهرب من هذا المكان الغريب لكنها لم تستطع.. أخذت تتلفت حولها في ذعر وهي تبكي بحرقة، لكن بكاؤها كان بلا صوت..

بيأس واستسلام نظرت أسفلها، شاهدت جسدها ممدد على الأرض بلا حراك.. يجلس "هشام" بجواره يحاول إفاقته، يجري له الإسعافات اللازمة.. "أكرم" ينظر نحوهما في ذهول وقد تسمر فوق الكرسي..

- إنت كويسة؟!، قلقتيني عليكي.

إنتبهت حين سمعت تلك العبارة، التفتت ناحية الصوت فاتسعت حدقتاها من الفزع.. رأت نفسها تقف أمامها، وتتحدث معها.. كل شئ فيها يشبهها تمامًا.. لكن نظراتها كانت مختلفة.. جامدة، ثابتة على وجهها كأنها لا ترى سواها.. عيناها تلمعان ببريق غريب، شارد لكنه

شديد القوة والنفاذ.. تملك الخوف منها فلم تجب، إكتفت بإيماءة خفيفة من رأسها..

- لسه مش عارفه تنامي؟!.

أجابت بعد أن بلعت ريقها لتقاوم ذلك الجفاف الشديد الذي إجتاح حلقها:

- انتِ عارفه اني مش بنام.

- لسه بتحبيه؟!.

- السؤال هو، انتِ بتحبيه؟.

- أنا مش بحب حد غيرك، لكن هو لازم يعرف انك قوية.. لازم يدفع ثمن كل اللي عمله.

قالتها ثم أشارت بيدها إلى الأسفل، ناحية "هشام" و"أكرم".. نظرت "ليلى" فشاهدت "هشام" وقد تملك منه غضب رهيب، يلتفت ببطء شديد ناحية "أكرم".. كانت كأنها تشاهد فيلمًا سينمائيًا بالحركة البطيئة.. شاهدت تلك النظرات الممتلئة بالحقد والكراهية التي رماه بها، "أكرم" مقيد إلى الكرسي بلا حول ولا قوة.. ثم سمعت صوت "هشام" يأتي من مكان بعيد جدًا كأنه يخرج من أعماق الماء حين صرخ بجنون:

- هقتلك يا أكرم، هقتلك.

قالها ثم قام يتحرك بنفس البطء ناحية المكتب، يلتقط سلاح والد "أكرم".. إلتفتت "ليلى" نحو نفسها وقالت في رجاء:

- بلاش تعملي كده، أرجوكي.

أتاها الرد في صورة ضحكة هازئة سمعت في أعقابها صوتها يقول:

- نفس اللي قلتيه لما قتلنا فريدة.

- أرجوكي كفاية، بلاش تقولي كده.. أنا ما قتلتش بنتي.

- خايفة تواجهي نفسك بالحقيقة، دلوقتي وقت الإختيار.. لازم تختاري بيني وبينه.

لمعت عينا "ليلى" ببريق مخيف وهي تنظر لنفسها، قالت حين كتمت أنفاسها في قوة:

- يبقى أكيد هتندمي.

دوى الطنين في رأسها من جديد، ارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة وسالت الدموع من عينيها حين رأت طيف "فريدة" تلوح لها من أعلى في سعادة.. أغمضت عينيها في ألم حين بدأت تهوي بإختيارها من أعلى إلى أسفل أرض..

***

شقهت "ليلى" شهقة قوية، فتحت عينيها عن آخرهما.. أنفاسها لاهثة كأنها عادت للتو من مشوار بعيد.. وبدأت رموشها الطويلة تهتز فوق عينيها هزات سريعة متتالية.. نظرت نحو "هشام" و"أكرم" ثم أخذت تتلفت حولها في ذهول، كأنها لا تعرف أين هي.. لحظات، عادت تنظر إليهما من جديد كأنها تستنجد بهما.. وأخيرًا استقرت نظراتها فوق عيني "أكرم"، الذي كانت دموعه تسيل بغزارة على خديه بعد أن ظن أنه فقدها إلى الأبد..

دنا منها "هشام" ثم جلس على ركبتيه بجوارها، ترك السلاح من يده وأخذها بين ذراعيه يحتضنها بقوة.. أبعدته عنها في هدوء وقالت بصوت وهن:

- بلاش يا هشام، بلاش.

رمقها "هشام" باستغراب شديد، ابتعد عنها قليلًا ثم قال:

- بلاش إيه بالضبط؟!.

- كفاية موت يا هشام.

انتفض "هشام" واقفًا، حدجها بنظرات امتلأت بالشك ثم قال:

- إنت هتختاريه تاني يا ليلى؟!.

إعتدلت "ليلى" جالسة بصعوبة، أطرقت برأسها إلى الأسفل وسالت دموعها ثم قالت بصوت خافت:

- مش بإيدي يا هشام.

إبتسم "هشام" في حزن ثم صمت تمامًا، أطرق برأسه للأرض قليلًا.. حين رفع رأسه كانت عيناه تلمعان ببريق مخيف، اندفع نحو "أكرم" المقيد فوق الكرسي.. أحكم قبضته حول عنقه، أخذ يصرخ كالمجنون:

- مستحيل أخليه ياخدك مني تاني، مستحيل.

إربد وجه "أكرم" وتلون بزرقة داكنة، بدأت أنفاسه تتقطع.. شعر بحريق هائل تستعر ناره في رئتيه، بات حصوله على قدر قليل من الهواء دربًا من المستحيل.. حاول أن يختلس نظرة أخيرة نحو "ليلى"، لكن الرؤية غامت أمامه واسودت تمامًا..

فجأة دوى في المكان صوت طلقة بدد ذلك الظلام الذي كاد أن يحكم سيطرته على عالمه، انقشعت العتمة من عينيه فجأة.. رأى "ليلى" تقف أمامه تترنح، وفي يدها سلاح والده.. سمع صوت طرقات عنيفة على باب الغرفة، وصياح حاد يأتي من خارجها.. نظر أسفل قدميه فوجد

"هشام" ملقى على جانبه، خيط من الدماء يسيل من رأسه..

- سامحني يا أكرم، أنا عمري ما كنت لحد غيرك.

إلتفت نحو "ليلى" وصوت الطرقات العنيفة فوق الباب يزداد، يكاد يخلعه.. حين نظر نحوها كان الأمر قد إنتهى، حدث كل شئ بسرعة شديدة..

طلقة ثانية حين سمع صوتها إنخلع قلبه، إعتصرت روحه قوة خفية غاشمة.. رآها تسقط أمامه متهاوية وسط بركة من دمائها.. حاول أن يصرخ باسمها عاليًا، لكن صوته لم يطاوعه.. خانته حنجرته ولم تستجب.. أخذ ينتفض فوق الكرسي كالممسوس حتى سقط به على جانبه.. حاول أن يتحرك نحوها، لكن الكرسي منعه وشل حركته.. تحجرت الدموع في عينيه حين ثبت نظره على عينيها، شاهد آخر بريق للحياة ينسحب منهما..

كان آخر ما سمعه صوت تحطم الباب، كان آخر ما رآه صورة مهتزة باهتة..

صورة "معتز" واضعًا يديه فوق رأسه.. ينظر حوله في ذهول، دموعه تتساقط في حزن حقيقي..

***

كَمْ نَحْنُ بَطِيئُونَ فِي تَصْدِيقِ مَا يَصْعُبُ تَصْدِيقُهُ..

(١٦)

طبع "معتز" قبلة حانية على جبين "أدهم" حين رأى أتوبيس المدرسة قد توقف أسفل المنزل.. إحتضنه في حب ثم ربت على كتفه، شجعه بإبتسامة أبوية.. وقف يرقبه من الشرفة حين صعد إلى الأتوبيس وأشار له بيده مودعًا، تداعت في رأسه ذكريات تلك الفترة التي كان بعيدًا فيها عن حضنه..

كان عام بالتمام والكمال قد مر على تلك الحادثة التي غيرت مجرى حياته، قلبتها رأسًا على عقب.. فبعد كل ما رآه بعينيه وعايشه بنفسه لم يستطع تغيير أي شئ، تم إغلاق ملف القضية.. تمت ترقيته على مجهوداته في كشف غموضها، ثم بعد فترة تم إستبعاده من العمل في المباحث وإلحاقه بعمل إداري في المديرية..

"العدالة في بلدنا نسبية"..

تردد صدى تلك العبارة في ذهنه بينما كان يعدل من هندام بدلته الميري..

- الشاي هيبرد يا حضرة الضابط.

إنتبه من شرود ذهنه حين سمع صوت "يُمنى".. إلتفت نحوها يتأمل رقتها التي طالما عشقها، كانت أسنانها تلمع من خلف إبتسامتها الرائعة.. قال بصوت حان:

- طبعًا هشربه، كفاية انه من ايدك.

إقتربت منه ووضعت رأسها على صدره.. ضحكت ثم رفعت رأسها عنه، قالت وهي تعدل من وضع الكاب المزين بنسر صلاح الدين فوق رأسه:

- طيب يلا روح شغلك بقى، وإلا هخليك متنزلش النهاردة.

مسح بكفه الضخم على خدها الناعم وهو يقول في حب:

- مش مهم، الشغل ممكن يستنى.

- دا انت كسلان بقى.

قالتها حين ضحكت في مرح، لكنه قال بعد أن استعاد مظهره الجاد:

- أبدًا والله، دا أنا النهاردة عندي مشوار مهم.

لمحت تلك الدموع التي لمعت في عينيه فقالت:

- برضه هتروح المشوار بتاع كل أسبوع ده.

- حاسس بالذنب، مش هقدر ما اروحش.

ودعته حتى الباب، غادر سريعًا بعد أن قبلها.. طوال الطريق من منزله وحتى العباسية كان ذهنه مشغولًا بما حدث.. تساؤلات كثيرة إستعرت في عقله، لكنه لم يجد لها إجابة..

دخل بسيارته من بوابة مستشفى الأمراض النفسية، ترجل منها متجهًا نحو عنبر الحالات الخطرة.. إستقبله أحد الأطباء على الفور بوجه صبوح، ابتدره مرحبًا:

- المستشفى نورت النهارده يا معتز بيه.

- صباح الخير يا دكتور، يا ترى أقدر اقابل أكرم النهاردة؟.

صمت الطبيب لوهلة ثم قال بصوت خفيض:

- الحقيقة، أكرم هرب من المستشفى.

- تاني؟!.

- واللـه يـا باشـا مـن بعـد آخـر مـرة سـعادتك رجعتـه وإحنـا حاطـين عليـه حراسـة. لكـن نعمـل إيـه بقـى؟، الإمكانيـات عندنـا ضعيفـة جـدًا والعمالـة بقـت زي مـا انـت عـارف....

لم يمهلـه "معتـز" حتـى يكمـل حديثـه، اسـتدار مغـادرًا.. ركـب سـيارته وقـد تملـك منـه الحـزن.. كان يعـرف أيـن سـيجده، تمامًـا مثـل كل مـرة هـرب فيهـا مـن قبـل..

لكنه في هذه المرة قرر أن يترك له حريته..

ربما للمرة الأولى في حياته..

***

كانـت السـماء مشرقـة والطقـس صحـو في هـذا اليـوم مـن أواخـر أيـام الشـتاء.. تجمـع الطلبـة حـول بعـض البائعـة الجائلـين، الذيـن افترشـوا بضاعتهـم أمـام أبـواب المـدارس.. يبتاعـون منهـم الحلـوى والبضائـع بأسـعار أقـل بكثـير مـن أسـعار المحـلات والدكاكـين.. بعـد أن أصبحـت أسـعارها سـوطًا يجلـد ظهـور النـاس، قيـدًا يحكـم الإلتفـاف حـول رقابهـم..

كان الطلبـة يصـدرون صخبًـا وضجيجًـا مرتفعًـا، منهـم مـن يطلـب العسـلية وآخـر يصيـح سـائلًا عـن سـعر الـدوم.. التـف آخـرون حـول بائـع يفـترش الأرض، يعـرض علبًـا كرتونيـة بداخلهـا دود القـز..

إنتبـه الجمـع عـلى مجـذوب إخـترق الزحـام بعنـف شـديد، وهـو يغمغـم بكلـمات غـير مفهومـة.. حـافي القدمـين، مهـوش الشـعر.. يرتـدي ملابـس رثـة شـديدة القـذارة، يجـر مـن خلفـه شـوالًا مـن الخيـش المهـترئ.. كان يترنـح يمنـة ويسـارًا كأنـه سـكران أو ممسـوس مـن الجـان.. عـلى مقربـة منـه وقفـت إحـدى السـيدات تلـف جسـدها بعبـاءة سـوداء تنظـر نحـوه في قـرف ظاهـر، قالـت بصـوت حـاد:

- شـوفوا الرجـل العـره، داخـل يتحـشر بـين العيـال والنسـوان إزاي؟.

توقـف المجـذوب عـن ترنحـه ثـم نظـر نحوهـا مـن بـين جفنيـه المتثاقلـين، سـالت دموعـه مـن عينيـه فلطختـا ذلـك السـواد الـذي يلـون خديـه المتغضنـين.. حـاول أن يتكلـم ففتح شـفتيه لكـن صوتـه لم يخـرج، سـال الزبـد مـن جانـب فمـه يبلـل لحيتـه المهوشـة.. أخـذ يحملـق بذهـول في وجـوه النـاس التـي تحلقـت حولـه.. صرخ فيـه أحـد البائعـين بقسـوة:

- ما تغور من هنا يابن المرة، العيال مش عارفه تشتري من وش أمك العكر.

بقي المجذوب ثابتًا في مكانه حينًا من الدهر.. ثم فجأة رفع كفيه ومسح وجهه بأصابعه شديدة الإتساخ، فازداد سواد وجهه تلطخًا.. إغتاظ الناس منه فصرخ أحدهم:

- مين الجدع المجنون ده؟.

- أهي بلاوي بتتحدف علينا، محدش عارف له أصل.

- بيقولوا انه كان متجوز واحدة وخانته فدماغه طارت.

- ياعم جواز إيه وحب إيه في الزمن الأغبر ده؟!.

- عندك حق، أنا سمعتهم بيقولوا انه كان غني وخسر كل فلوسه في البورصة.

- بورصة مين يا عمنا، هو لسه في بورصة؟.

- لا يا جدعان، دول بيقولوا انه كان معتقل سياسي.

انفعل أحد الباعة وصرخ بحدة:

- لا سياسة ولا بتنجان، إحنا عاوزين ناكل عيش.

أنهى عبارته ثم سحب عصا غليظة من أسفل فرشته، توجه نحو المجذوب يهم بضربه على رأسه..

إنبرى شخص من بين الزحام، أمسك بيد البائع في قوة فتوقف الأخير ونظر نحوه بإحترام واضح.. ثم تمتم في صوت خفيض:

- لا مؤاخذة يا حاج نبيل، الرجل ده قارفنا. مش عارفين ناكل عيش من وقفته دي.

ألقى "نبيل البغدادي" بالعصا الغليظة بعيدًا ثم صاح بصوت مرتفع:

- سيبوه، ده معايا.

إنفض الجمع على الفور بعد سماعهم لصيحة "نبيل"، الذي إقترب من المجذوب في هدوء.. ربت على كتفه ثم منحه إبتسامة رائقة وقال:

- عاوز إيه؟.

لم يرد المجذوب، وأخذ يحملق في وجه "نبيل" بذهول.. أمسكه "نبيل" من ذراعه، واقترب به من البضائع المفروشة على الأرض.. تهلل وجه المجذوب في فرح، مد يده نحو واحدة منها.. تناول علبة كرتونية، فتحها ينظر لدودة القز القابعة بداخلها.. إحتضنها كأنه يحتضن عزيزًا له.. أومأ "نبيل" برأسه ثم نقد البائع ثمن العلبة.. غادر المجذوب المكان بعنف، تمامًا كما أتى..

لمعت الدموع في عين "نبيل" أو "بلبل" كما كان يناديه أصحابه.. ووقف من بعيد يتأمل المجذوب وهو يداعب دودة القز داخل العلبة، بدا كأنه يلاطفها ويحدثها حديثًا لا يفقهه سواهما.. سالت دموعه بعد أن تتابعت في عقله ومضات خاطفة، كأنها لقطات لشريط سينمائي.. تروي قصة هذا المجذوب وهو يهبط درجات سلم الحياة، رويدًا رويدًا، ببطء شديد..

كان كورقة شجر يابسة تلاعبت بها رياح الشتاء القاسية، فرفعتها إلى الأعلى.. لكنها برغم هذا الإرتفاع كانت تنطق بذلك الهبوط الحتمي المقدر عليها.. حتى توسدت الثرى ودهستها الأقدام..

رفع المجذوب رأسه عن دودة القز ثم التفت نحو "بلبل"، ابتسم له ابتسامة عريضة..

رماه بنظرة طويلة، شاردة.. كانت خالية من أي أثر للحياة..

***

.."تمت بحمد الله"..

القاهرة ٢٨ سبتمبر ٢٠١٦

منتصر أمين

إلى معتز أمين..

إلى من علمنى كل شئ..
أرجو أن تكون فى عالم أفضل..

دار تويا للنشر والتوزيع

الأعمال الكاملة

t.me/kotbhm